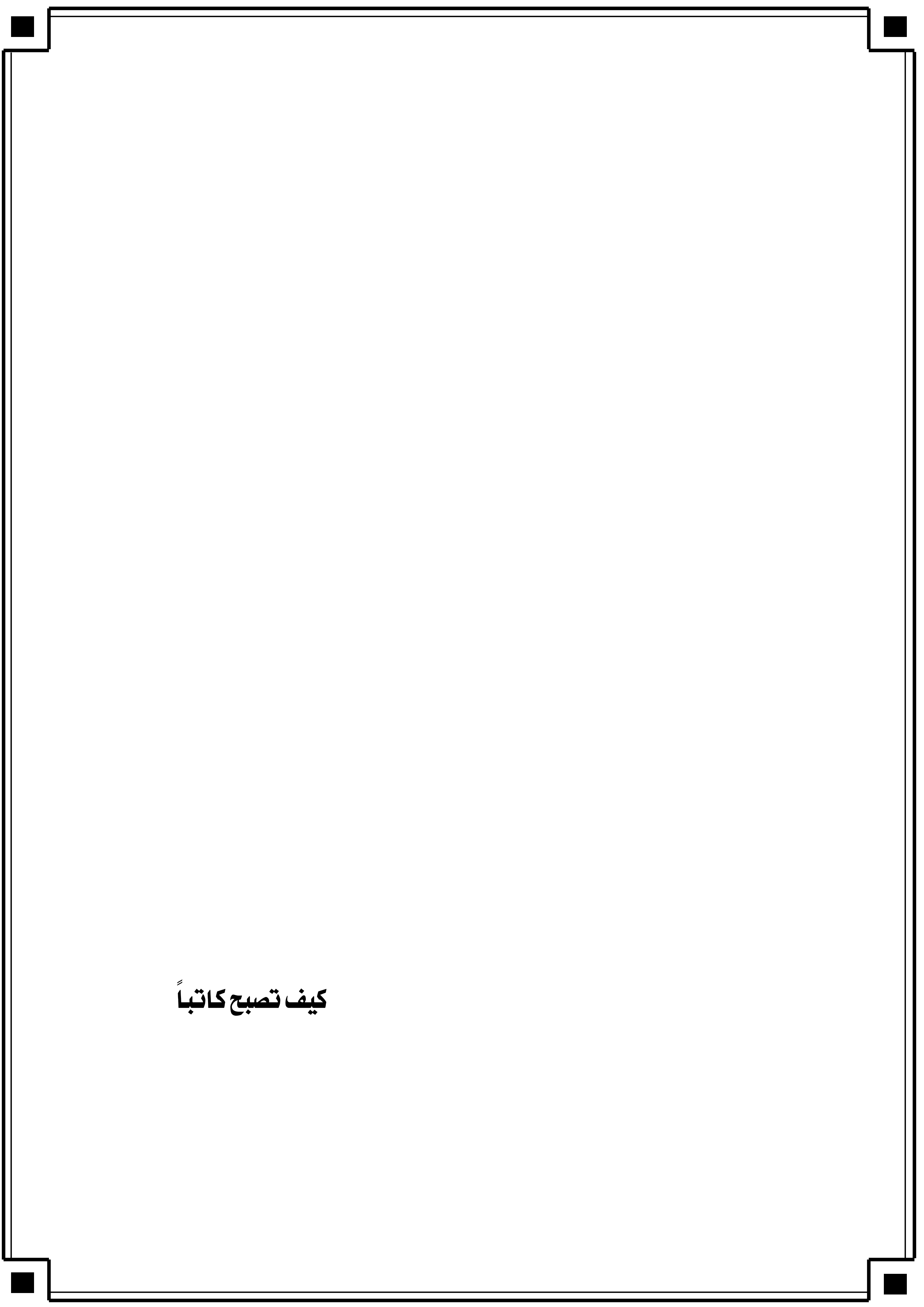


كيف تصبح كاتباً

الطبعة الأولى

١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(/ /٢٠)

السيد ، محمد حمدان
كيف تصبح كاتبا/ محمد حمدان السيد._ عمان: دار المأمون للنشر والتوزيع، ٢٠١٢.
() ص
ر.أ.: (/ / ٢٠).
الواصفات: /

❖ أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية
❖ يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.



كيف تصبح كاتباً

محمد حمدان السيد




بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين حمد الشاكرين والصلاة والسلام على نبي الهدى قدوة البلغاء وسيد البيان العربي المبين محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان من حملة البيان القرآني الذي لا يدانيه بيان، ولا يلحق به بلاغ، ولا يطاول علياء كلامه كلام إنسان. وبعد:

فإن العرب اشتهروا من بين الأمم بأنهم أمة البيان والبلاغة، إذ كانوا في القمة من الاحتفال بالكلمة وبيانها وبلاغتها، رغم أنهم عُرفوا أيضاً بأنهم الأمة الأمية، التي قلت فيها معرفة الخط والكلمة المكتوبة، فقد كانت صدورهم مسكن شعرهم ومخزن بيانهم تلهج به ألسنتهم ، وقد ذكر ربنا عز وجلّ في كتابه العزيز شيئاً عن قوة منطق العرب وعلو قامتهم في البيان وذلك حين قال جل من قائل: "وإن يقولوا تسمع لقولهم" المنافقون ٤ وقال أيضاً: "ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا" البقرة ٢٠٤، وهو ذكر رباني يبين ما كانت عليه العرب (الناس) من قول يُسمع، ومن بيان مُعجب مداره على (البيان والتبيين) كما قال الجاحظ في كتابه البيان والتبيين وأضاف: (كلما كان اللسان أبين كان أحمد.."[1].

وقد وضح الجاحظ قوله هذا بأن قال: "وأن البيان يحتاج إلى تمييز وسياسة، وإلى ترتيب ورياضة، وإلى تمام الآلة وإحكام الصنعة،.. وأن حاجة المنطق إلى الحلاوة، كحاجته إلى الجزالة والفخامة، وأن ذلك من أكثر ما تستمال به القلوب، وتثنى به الأعناق، وتزين به المعاني."[2]. لقد كان العرب يتداولون البلاغة والبيان شفاهاً في الغالب الأعم، وليست عن معرفة بالقراءة والكتابة، إذ كان اللسان

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ الطبعة الأولى ١٩٩٨ دار الكتب العلمية – بيروت لبنان،ج١ صفحة ١٤.

(٢) المصدر السابق ص١٦.

والقلب والصدر هي موضع البيان في غالب الأحوال، وقد قيل في أمثال العرب: "أبلغ من ابن القرية وابن القرية" هذا هو أيوب بن يزيد بن قيس بن زرارة الهلالي؛ أحد البلغاء والخطباء الذين يُضرب بهم المثل في البيان، وهو أمي.

ولقد كان الشعر ديوان العرب وموضع فخر القبائل، لذا كانت القبيلة ترجو أن ينبغ فيها شاعر، ليكون لسانها المنافح عنها وصانع الفخر بأمجادها وعلو مكانتها، وهو المذيع والإعلامي الفذ فيها، الذي يبارز البلغاء، ويساوم الفصحاء، ليجلي ما غاب عن الآخرين مما حازته وتحوزه قبيلته وعشيرته الأقربين.

فلما حلّ الإسلام في ديار العرب أهل الفصاحة والبيان.. هزتهم أكثر ما هزتهم بلاغة القرآن، وعلو ألفاظه ومعانيه، وقصورهم عن مداناة تلك البلاغة، حيث اشرأبت أعناقهم وقلوبهم إلى ذلك الكلام المغدق، "والله إن لقوله لحلاوة وإن أصله لَعَذْق(١)، وإن فرعه لجناة(٢).."(٣).

فهم (العرب) متذوقو البلاغة العاشقون للكلمة والبيان، سحرهم القرآن بعلو كلامه وتحديه لهم بأن يأتوا ولو بسورة من مثله، فخضعوا لسلاحه البلاغي، ولعلمه وسمو معانيه الحياتية والتربوية والروحية وإجابته عن أسئلتهم الحائرة.

ولما امتد الزمان بالناس، واختلطت الأجناس من الداخلين في الإسلام من الأمم الأخرى تفشى اللحن، وضعف بيان العرب المبين، فكانت الحاجة أبداً إلى التنويه والتدريب والقول في حاجات الكتاب والشعراء، كي تضبط السنتهم، ويستوي القول عندهم على أساسات العرب البيانية.. فكانت مؤلفات الجرجاني

---

(١) العذق: النخلة

(٢) الجناة، ما يجنى من ثمر.

(٣) تهذيب سيرة ابن هشام – مؤسسة الرسالة – ودار البحوث العلمية – الكويت/ عبدالسلام هارون، ص٦٠.

وابن قتيبة وغيرهم الكثير من المؤصلين للبيان العربي المبين قديمين وحديثين..

وكانت مني هذه المشاركة المتواضعة في هذا السياق مبيناً فيها سبل المضي في اتباع هدي الأولين، ثم في مراعاة عصرنا الذي نعيشه، ونزاول فيه الكتابة التزاماً بالهدى، وإنقاذاً للكتابة من وهن الطين، وما يروجه المروجون من وسائل وأساليب تبعد – عن قصد أو غير قصد – اللسان العربي العالي عن ساحة الكاتبين..

وقد قسمت البحث في هذا الموضوع إلى بابين، الأول يحتوي عشرة أبحاث في التنظير للبيان المعاصر الملتزم، والثاني، ضمنته دراسات تطبيقية معتمدة على التنظير..

راجياً من الله العلي العظيم.. أن يجعل في هذا الجهد المتواضع نفعاً وفوائد تساهم في وضع الأمور في نصابها، فإن أصبت فهو من الله، وإن زللت عن غير قصد.. فمن نفسي، داعياً العلي القدير أن يجعل فيه أجر المجتهد..

محمد السيد

١٢ رجب- ١٤٣٢هـ

١٤ حزيران - يونيو -٢٠١١م

الباب الأول

أبحاث في التنظير

وفيه:

أ - المبحث الأول: مكانة الكتابة والكتاب

ب - المبحث الثاني: الموهبة

ج - المبحث الثالث: تنمية الموهبة وفيه فصول:

١ - العقيدة والسلوك والأخلاق

٢ - الاطلاع الواسع على فروع المعرفة

٣ - الاطلاع المستمر

د - المبحث الرابع: المران والتجريب

هـ - المبحث الخامس: السير قدماً، التأكيد الملح على العقيدة والسلوك

و - المبحث السادس: خطوط الارتقاء

ز - المبحث السابع: حديث في الأسلوب

ح - المبحث الثامن: النور الآن في قلمك وملك أناملك.

المبحث الأول

مكانة الكتابة والكتّاب

١- تمهيد:

يتبوأ الحرف العربي مكانة أولى في معركة إثبات الذات لأمة الإسلام، لذا فهو يخوض لججاً من المحاولات، في الطريق إلى توضيح الوجه الحقيقي لمستقبل الأجيال القادمة من هذه الأمة، ذلك الوجه الذي يحمل سمات دين الإسلام، ويؤشر إلى تبني هذه الأجيال العودة إلى نبعها الأصيل وسبيلها القويم، المؤسس على عقيدة ربانية، نزل بها الروح الأمين على قلب رسول حبيب، حمل الأمانة إلى الناس بقوة وعدل وإخلاص، فسرت العقيدة الإسلامية وشريعتها وسلوكياتها في أجيال الأمة على مدى أربعة عشر قرناً من الزمان، تحملها حروف نورانية، انتشرت أشعتها من خلال كلمات كتاب الله العظيم (القرآن الكريم)، الذي تناولته والحديث الشريف أقلام الكتاب والعلماء بالشرح والتفسير والبيان والتوصيل إلى كل الأنحاء من هذا العالم، وكان لدور القلم والكتابة المكانة الأولى في انتشار الخير العميم، وعلى الأخص عندما كان هذا القلم يخط خطه من خلال العمل والقدوة والالتزام بما جاء في الكتاب والسنة.

ولا بد من الإشارة في هذا التمهيد إلى حقيقة راسخة في مسيرة هذه الأمة: وهي أن المعجزة الأولى والأساسية في حياتها كانت وما تزال، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وما عليها، متمثلة في كتاب الله الكريم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وفي ذلك ما يشير إشارة مباشرة وواضحة إلى أهمية الكلمة البليغة الملتزمة القوية الخالصة في بناء الأمم وصناعة الأجيال؛ إذ إن أول ما نزل على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم من القرآن الكريم: "اقرأ"، فكانت شعاراً ورمزاً وعملاً في أمة أمية، تحولت خلال عقود قليلة من الزمان إلى أمة قارئة

عالمة قائدة للأمم، وذلك ما يسره الحرف الرسالي وبيانه السامق العالي.

٢- ما جاء في أهمية الكتابة والكتّاب

لا يستطيع أحد أن يماري في أهمية الكتابة والكتّاب وأثرهما في الأمم، سلبية كانت تلك الآثار أم إيجابية. إن كُتَّاب الفكر والعلم والأدب هم الذين بأقلامهم تُسَطّر مصائر الأمم، وبأقلامهم تتضح معالم الحاضر والمستقبل. ولقد عظّم رب العزة الحرف ومن يسطرونه من ملائكته، فأقسم بالحرف وبالكاتبين له، فقال جل من قائل:

﴿ نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾[1]، فالحرف، والقلم، والقرطاس، كلها أدوات حرفة الكتابة وقد استحقت لأهميتها أن يقسم ربنا بها. وقد بين الله لنا نحن البشر أي سبيل نتبع، لنصل إلى فضيلة العلم والمعرفة، فقال سبحانه وتعالى في محكم الكتاب العزيز: ﴿ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴾[2]، فلا يمكن أن تمتطي أيها الأخ الكريم ناصية العلم، ولا يمكن أن تمتلك أدوات المعرفة إلا عن طريق القلم، أي الكتابة والكتّاب والكتاب، فكم هي عظيمة تلك المكانة والمهابة لهذه المهنة الراقية، إذا التزمت بقيم الحق والهدى والفطرة الإنسانية التي خلق الله الإنسان عليها، ؟!

ولقد ميز ربنا جل جلاله ملائكته الكتبة على غيرهم من الملائكة_ وهم جميعاً مقدرون ومحترمون_، فذكرهم وحدهم بمهنتهم، إذ قال في محكم الكتاب: "بأيدي سفرة كرام بررة"[3]؛ وسفرة: هم كتاب الأسفار من الملائكة. فهم كرام بررة، لأنهم كانوا أمناء أعظم ما تكون الأمانة على ما استحفظوا عليه من كتابة للأقدار والآيات الربانية.

وليس هذا الذي أبديناه من بيان لأهمية الكتابة والكتّاب هو نهاية المطاف في

---

(١) القلم (١).

(٢) العلق (٤).

(٣) عبس (١٥، ١٦).

بابه، بل إنك أخي الكريم سوف تجد في سطورنا القادمة مزيداً من البيان في هذا المجال، ليس آخره ما قاله الأصمعي لرجل: "ألا أدلك على خليل إن صحبته زانك، وإن احتجت إليه مانك، وإن استعنت به أعانك؟. قال الرجل: نعم فقال عليك بالأدب"[١]. والأدب نوع من الكتابة يكتبه كتّاب مبدعون، يقفون في قمة قائمة الكتّاب، لما يمتلكون من تأثير نفسي وحركي وعملي في نفوس الناس ومشاعرهم ووجدانهم.

ويكفي أن نذكر في هذا المجال، أن أربعة من الكتاب المسلمين، قد بويعوا بالخلافة وهم: عثمان وعلي ومعاوية رضي الله عنهم، ورابعهم عبدالملك بن مروان رحمه الله. ولا ننسى في هذا السياق ما وصل إليه كثير من الكتاب من مكانة وقدر؛ من مثل الفتح بن خاقان، وابن عباد وغيرهما...

وقد قال الشاعر أبو الفياض الصابئ في مدح الصاحب بن عباد:

أقال الله للأقدار سيري وفي أقلام اسماعيل صيري[٢]

وهذا ابن الرومي يقول في مدح الكتابة والأقلام الكاتبة شعراً طيباً:

كذا قضى الله للأقلام مذ بُريت إن السيوف لها مذ أرهفت خدم

وقد قيل قديماً: "قيدوا العلم بالكتابة"[٣]. وقال سقراط: "ما بنته الأقلام لم تطمع في دروسه الأيام"[٤]. فالعلم لا تثبت منفعته وتدوم إلا بالكتابة، إذ لا تطمع الأيام حينئذٍ في اندثاره وذهابه أدراج الرياح بفعل النسيان وآفات اللسان.

وكل هذه الأهمية للكتابة والكتّاب، وكل ذلك القدر الذي كان للكتّاب، نابع من أن هذه المهنة تحتاج إلى إمكانيات مضاعفة وذكاء فائق، لأن صاحب هذه المهنة

---

(١): (٢) من كتاب محاضرات الأدباء لأبي القاسم محمد الراغب الأصبهاني، ج١، ص١١٢.

(٣، ٤) المصدر السابق ص٤٩.

يحتاج إلى التفكر بالمعاني، وإلى اكتمالها في قلبه، ومخيلته، ثم ليقدم بياناً ناصعاً واضحاً، من حروف وكلمات وجمل يخطها قلم ثابت الجنان، عالي البيان، ملتزم بالعقل والقلب والجوارح ملتصقة جميعها بقيم الرب الديان، الذي أراد لهذا الإنسان الهدى والصلاح في هذه الدنيا، والفوز والفلاح: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ۝٨٩﴾[1]. وانظر أخي القارئ إلى ما تركه سيد قطب الكاتب الفذ من أثر عظيم في الأجيال، وكذلك تنبه إلى ما تركته كتابات الشيخ محمد الغزالي وما أنتجه الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي من تأثير وتعديل سلوك الناس وأفكارهم، وليس هؤلاء الذين ذكرنا إلا أمثلة عن الكتّاب الذين امتد أثرهم وتأثيرهم، فكان الناس تبعاً لما نشروا من أفكار بأقلامهم التي سطرت الفكر والأدب.

---

(١) الشعراء (٨٨، ٨٩).

المبحث الثاني

الموهبة

١- نظرة في الواقع

افتح ناظريك، وأبحر معي في أسواق المدن العربية، لنتوقف عند المحلات التي تسمى مكتبات، وهناك أمعن النظر في صدورها المأزومة بشتى البضائع المصفوفة داخل كل غلافين، حاول أن تفتح الأغلفة، لتكتشف البضاعة الملقاة أحرفاً وكلمات وجملاً داخل تلك المجلدات، وسوف تجد بعد كدّ الذهن والعين، أن الأمور في كثير من الكتب تربض خلف الوهم، ولا تتعدى الثرثرة الشاحبة الألوان، الباهتة الطعم، هذا إن لم يكن الأمر أجلّ وأخطر؛ إذ تعودت العين في كثير من الوقت على إبصار ما فيه تشويه الحلم، ذلك الذي ذهب من خلاله بعض مدعي أرباب القلم هذه الأيام إلى إلقائنا على بوابات الفجيعة، فقد رمونا بسهام حروفهم وكلماتهم النابية، محاولين إبعادنا عن مرمى الإبصار الجمعي لهذه الأمة تاريخاً وحضارة وعقيدة.

وإنك إن حاولت فهم شيء مما يدور في ساحة الحروف العجماء، لعاجلك ألم الشعور بأن ذلك الغثاء كله ناتج من عدم الأخذ بالنطق الأعلى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤﴾[1]؛ إذ ارتاد كل من هبّ ودبّ ساحات الكتابة، مؤيداً ومدعوماً بأسلحة بعض الناشرين، من الذين أضاعوا الأمانة، وأسرعوا خلف التجارة، التي تغريها وتسيل لعابها، الأسماء المتداولة، بغض النظر عما تريقه أقلامهم فوق القراطيس من دماء الفكر والأدب البريئة.

---

(١) سورة الرحمن.

٢- "**خلق الإنسان علمه البيان**"

وإذن فالكتابة فن يقوم أول ما يقوم بالموهبة، ويقتله ويأتي على الإبداع فيه الادعاء، ويجب أن يعلم صاحب الموهبة أنها مخلوقة فيه، وأنها من صنع الله الذي أحسن كل شيء خلقه ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[1]، فهو لا يدلّ ولا يضل ولا يتيه بتلك الموهبة، بل هو على العكس من ذلك يحاول التواضع مع بذل الوسع لتوظيف المنحة الربانية وتنميتها ورعايتها، لتكون في خدمة الاستخلاف الرباني للإنسان، المتمثل في العبودية لله واستعمار الأرض وتسهيل الحياة عليها وترقيتها، بحيث تستقيم على النهج القويم، الذي أرسل الله به جميع الأنبياء من لدن آدم عليه السلام وحتى رسولنا الكريم خاتم الأنبياء والمرسلين محمد صلى الله عليه وسلم.

والبيان من أعظم الهبات الربانية للإنسان الموهوب، فهو إذا راعى فيه حق الله، ووظف موهبته في هذا الاتجاه، أنتج الخير العميم لهذا الإنسان، لذا كان من الضروري والواجب على كل مؤمن يُحسُّ أن لديه موهبة البيان، أن لا يتوانى عن السير في رَكْبِ صقلها وتنميتها ورقيها، ثم الخوض بها في سوق البيان، الذي ازدحمت فيه الأصوات الشاذة، والأقلام المشبوهة، والترجمات المغرضة، وكادت أن تطغى على البيان الأبيض الناصع ، الذي ساهم في تأخر خطواته كثير من المسلمين الملتزمين القائمين على نشر الكلمة وإذاعتها بين الناس، تأكل قلوبهم في ذلك منازعات التجارة والربح، ومناكفاتِ أن يخرج أي عمل كتابي حسب الهوى الذي يريده أولئك الشواذ. لا بل إن الحسد الحالق لكل خير قد يكون أحد آكلات القلوب والمواهب.. بينما نرى أن ما يجري على الضفة الأخرى من المشهد الثقافي يتم بصورة عكسية تماماً؛ إذ تشجع أية موهبة، وتُقدم، وتُشهر، ويُعلى مقامها، لمجرد

---

(١) البقرة (١١٧).

أنها تصب في اتجاه مضاد لمنهج البيـان الربـاني المنجـي، كمـا أنـه يفسـح في المجـال لمنظومات الرأي وكلمات البيان، الذي يريد تفجـير اللغـة وتشـكيلها مـن جديـد، بحيث يضيع كل البناء الثقافي المذخور في حروفها منذ خمسة عشر قرناً وحتى اليـوم، كما رأينا ارتفاع قامات ما كانت لتظهر – ثم لترتفع-، لـولا أنهـا وجـدت نفسـها محاطة بناشرين يذيعون كل كلمة تافهة تقولها، وكـل صـيحة شـر تنطلـق مـن بـين شفاهها، ثم تزف كل تلـك الخبـالات بـأنواع متنوعـة مـن الزخرفـة والدراسـات، والقول وإعادة القول، والرد وإعادة الرد، حتى يصل الردح والتكرار إلى أبعد نقطة وآخر فرد في بوادي العرب ومدنهم وأريافهم.

٣- بماذا تتجلى الموهبة وتُعرف؟:

وعودة إلى موضوع الموهبة لنقول: إن الكتابـة عمليـة إبداعيـة، إذ إنهـا تقـوم على تشـكيل الصـور، وتوصـيل المفـاهيم والآداب والعلـوم، والفكـر القـويم إلى الناس، بواسطة اللغة وأبجديات اللغة، فهي بهذا عملية تكـوين وتشـكيل، منطلقـة من قلب المنحة الربانية "الموهبة"، المحاطة بهالة من التوفيـق الربـاني إن اسـتعملت في السبيل القويم، لذلك فإن العناصر التي تكوّن وتطلق الموهبـة، أو بمعنـى آخـر الـتي يتعرف الشخص بها إلى وجود لها عنده، وأنه قادر علـى عمليـة الكتابـة، وإيصـال الأفكار، والصور والمفاهيم إلى الناس بواسطة الحروف والكلمات والجمل، أقـول: إن هذه العناصر تتمثل فيما يلي:

أ- الذكاء الجيد: إذ إن عملية التشكيل تحتاج إلى فكـر تحليلـي وتـركيبي، ثـم إلى قدرة على مزج المفارقات، ووصل الجملة بالأخرى، حتى تصـل إلى تكـوين فكرة عامة يراد إيصالها إلى الناس.. وهذا لا يتسنى إلا إذا توفر الذكاء الجيد، فإذا لمس الفرد في نفسه القدرة على طرح الأفكـار وإمكانيـة انتقـاء الصـالح

منها، والقدرة على التعبير عما جاء فيها شفهياً، ثم لاحظ قدرته على التأثير في الآخرين واستحسانهم لما يقول، فليعلم أن ذكاءه الكتابي خامة قابلة للانطلاق في سوق الإبداع الكتابي، فليتوكل على الله، وليبدأ السير في المهمة بالخطوة الأولى، طالباً العون والتوفيق من الله: "وما بكم من نعمة فمن الله"(١).

ب- الخيال المتوازن: فعملية الكتابة (والأدبية منها بصورة خاصة)، تحتاج إلى تكوين الأشياء والأفكار في مخيلته، قبل أن يسطرها بقلمه على القرطاس، ومن الطبيعي لدى الهداة أن يلتزم هذا الخيال بالهدي الرباني، فلا يكون شططاً، يركض خلف الأحلام المريضة، أو الأحلام الجامحة مستحيلة التحقق، وعندئذ يكون الإخفاق في الوصول إلى الخيال المتزن سبباً في اليأس أو التشاؤم أو الاكتئاب، وكل ذلك معادٍ للفطرة الربانية، التي أباحت للإنسان أن يتخيل وينشئ الحلم المتوازن، الذي يخدم خلافته عن الله في الأرض. ولقد كانت أحلام كثير من أدباء الغرب الأوروبي في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، متجهة إلى دواخلهم، ومسافرة إلى بواطنهم، التي انطوت على عجز بعيد الغور عن التواؤم مع مجتمعاتهم، التي هزتها النقلة الرأسمالية الإنتاجية، فراحوا يحلمون بمجتمعات خيالية، أنتجتها دواخلهم غير السوية، السارحة في رؤى فوضوية من كل الأنواع، لذا فقد جاءت نصوصهم التي أنتجوها انطلاقاً من هذه الخيالات، مغرقة في التخبط، والجنون والخبال(٢).

ولكن كيف يتسنى للناشئ أن يكتشف وجود مثل هذا الخيال ضمن ملكاته التي وهبه الله إياها..".

وللإجابة على السؤال نقول: إن من السهل على الإنسان المثقف أن يطرح

(١) النحل (٥٣).

(٢) انظر شكري عياد (المذاهب الأدبية).

الأسئلة الآتية على نفسه:

١- هل يتقن الربط بين الفكرة والفكرة؟

٢- هل يكثر من السؤال عما حوله، وما يسمع من أقوال وما يرى من أعمال؟

٣- هل يحب الاختلاء بنفسه لحظات التأمل؟

٤- هل يتقن التنبؤ بالنتائج النابعة عن تحليل محكم؟

٥- هل يستوعب آفاق الآخرين..؟

٦- هل لديه القدرة على استعمال أساليب جديدة في التعبير؟

٧- هل يكتب كل ملاحظاته؟

هذه بعض أسئلة مقترحة من الممكن أن يلقيها المرء على نفسه، فإذا وجد أن أكثرية الإجابات إيجابية، فقد تحقق فيه عنصر الخيال المناسب، وهذا يؤهله لركوب الطريق من بدايته، بعد طلب التوفيق من الله، ثم الجد والدأب والرعاية والممارسة، فكل ذلك كفيل بوصوله إلى النتائج المرجوة، ليكون كاتباً باتجاه رباني رشيد.

ج- الهمة العالية والثقة بالنفس: ليعلم المؤمن المتجه إلى امتلاك ناصية الكتابة أنه في ساحات مصارعة، السبق فيها لمن يمتلك الأدوات التي أهمها علو الهمة وسمو الهدف، والثقة العالية بالنفس بعد التوكل على الله، وطلب التوفيق منه

"وما نيل المطالب بالتمني ولكن تؤخذ الدنيا غلابا"

"وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام"

فلتكن أخي الكاتب المؤمن من ذوي الهمم العالية الغالية، الواثقين بخطوهم،

المصممين على الفوز في ساح الكلم الطيب الخيّر المؤثر، وليكن قدوتك في ذلك حبيبنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم، إذ جاءت قريش بزعمائها، يعرضون عليه كل ما يريد على أن يترك الأمر الذي أرسله الله به، فما كان جوابه إلا أن قال لهم بأعلى همة وأعظم ثقة وأقدر تعبير: "والله لو وضعتالشمس في يميني، والقمر في يساري، ما تركت هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك في طلبه"[1]. أو كما قال صلى الله عليه وسلم..

وأنت أخي الكريم إذا تحققت لك هذه الرباعية الموهبية من المنحة الربانية والذكاء العالي، والخيال المتوازن، والهمة العالية والثقة بالنفس، فلتمسك بأول الطريق، ولتمض به مسلحاً بأدواته التي سنتطرق إليها في الفصل القادم إن شاء الله.

(١) رواه البيهقي والبخاري (من السيرة النبوية) لابن كثير مجلد ١ (ص ٤٦١) طبعة دار المعارف بيروت.

المبحث الثالث

تنمية الموهبة

١- العقيدة والسلوك والأخلاق

١- المؤمن والكتابة:

إن وعي المؤمن بنفسه، ووعيه بربه وخالقه، وفهمه لمهمته في الحياة من خلال الوعيين السالفين، يجعله يختار لنفسه الطريق السديد الذي يتقنه، للتعبير عن عميق إيمانه وفهمه لمغزى وجوده المذخور في خلة عظيمة رائعة هي (التبليغ)؛ تلك الخلة التي يبنى عليها صلاح الحياة وصلاح الإنسان وعلاقاته بالكون وبالإنسان الآخر وبالحياة.

وإن مراكب اللغة والبيان هي أهم ما يحمل التبليغ في طريقه إلى الآخر. وكلما كان البيان عميقاً بليغاً مؤثراً ازدادت مساحة انتشاره أفقياً وعمودياً.. وهذا ما لا يملكه إلا أصحاب المواهب والمنح الربانية.

فهل يكتفي صاحب الموهبة بالمنحة، ويقعد عندها لا يتجاوزها؟ أم أن هذه المنحة محتاجة إلى اتخاذ الأسباب، من أجل ترقيتها ونمائها وصقلها، وجعلها متأهبة للأخذ بالأفضل والأبلغ والأقدر على الوصول إلى الناس؟

دعك من قول القائلين العابثين: (الفن للفن)! والكتابة الفنية لا تحتمل الغرض، فهو يفسدها..! لأن هذا الاتجاه عبث كله، غثاء كله، تدمير كله، فالقول مثل العمل، إن لم تترتب عليه منفعة وفائدة للإنسان، تجعله دائماً قريباً من السداد والرشاد، يكون صاحبه كمن يقفز في الهواء بلا هدف، فهو إما أن يرتطم بأي شيء فيحطمه، أو يضيع مع الريح في الفضاء، مضيعاً كل من صدّقه في لحظة من

اللحظات.

والمؤمن الذي يكتشف موهبته في الكتابة، مدعو إلى اتخاذ كل الأسباب لامتلاك ناصية البيان، واعتلاء أرفع صهوة من صهواته، وذلك بغية ارتقاء شمم التبليغ، والوصول من أقصر الطرق وأسهلها وألينها قبولاً، وأبلغها أثراً، فهو على علم أكيد أن هذه الموهبة ليست للتسلية والعبث، أو التضليل والإفساد، بل هي عاملة في صميم الحياة الإنسانية، ترقية، وإعلاء للقيم، وخدمة للإنسان، مهتدية بالإيمان العميق، المنطلق من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم:

(عن معاذ بن جبل ﷺ عن رسول الله ﷺ قال الله تعالى: وجبت محبتي للمتحابين فيّ والمجالسين والمتزويرون فيّ والمتباذلين فيّ)[1] ... وليس أقدرهم على الولوغ في تحريك غرائزهم، وتحريض حيوانيتهم، وقتل القيم فيهم، ببث فلسفات مزاجية أهوائية، يصنعها خيال الإنسان وعقله القاصر عن بلوغ مرامي القضايا الكبرى بعيداً عن الهدي الرباني..

وأولئك من قال فيهم الأديب الرفيع المكانة (مصطفى صادق الرافعي) قولةً مفحمة رادعة مرددة: (ناهيك بها عقولاً ضيقة معتلة غلب عليها الكيد، وأفسدها التقليد، ونزع بها لؤم الطبع شر منزع، حتى استهلكها ما أوبقهم من فساد الخلق، وما يستهويهم من غوايات المدنية.. وكانوا في العلم كالنبات الذي خبث..)[2].

٢- تنمية الموهبة:

إن النطق بالكلمات، أو نقلها مباشرةً من حاضنتها في فكر الكاتب ومخيلته إلى الورق كلمات منظومة أو منثورة، ومعاني رفيعة مجنحة بالصور والبيان العالي، عملية تستوحي كل المخزون الثقافي والفكري والروحي للكاتب، وتستحضر الخبرة والتجربة الإنسانية التي مرت به، لتقوم جميعاً في حشد كل الألفاظ والمعاني المناسبة

---

(١) صحيح وراه مالك في الموطأ من كتاب رياض الصالحين.

(٢) مقدمة الطبعة الثالثة من (إعجاز القرآن) نشر دار الكتاب العربي ص٩.

للتعبير عن التجربة الشعورية التي يمر بها هذا الكاتب في لحظة ما.. وإذن فإن الموهبة المذخورة تستنجد في كل زمان ومكان بكل الجهود والتجارب والخبرات لتبذل من أجل الوصول إلى تعبير بليغ مؤثر فاعل نافع.

فهل من سبيل لمعرفة وسائل تنمية موهبة الكتابة عند من يجدها في نفسه من المسلمين؟

نعم.. وإنها لأسباب تتعلق:

- بالعقيدة والسلوك والأخلاق.
- بالمعرفة بفروعها وأقسامها.
- بالمران والتأدب والتجريب وتهذيب اللسان.
- بفهم الجو الذي يعيشه (حياة وثقافة المجتمع المحلي وغير المحلي).
- بإتقان مهارات العصر الذي يعيش.

وإننا في بقية السطور من هذا البحث، سوف نلقي الضوء على البند الأول من أسباب تنمية الموهبة ونعني به:

أ- علاقة العقيدة والسلوك والأخلاق بترقية الموهبة وتنميتها:

قال ابن قتيبة: (ونحن نستحب لمن قبل عنا وائتم بكتبنا أن يؤدب نفسه قبل أن يؤدب لسانه، ويهذب أخلاقه قبل أن يهذب ألفاظه، ويصون مروءته عن دناءة الغيبة، وصناعته عن شين الكذب)[1].

وإنه لما كان فن الكتابة والأدب سبيلاً عظيماً يقود إلى نفع الإنسان والارتقاء به وبحياته في دروب الحياة الشاقة، كان أهل الكتابة محتاجين أشد الحاجة إلى إيمان راسخ، وسلوك نظيف، ولسان نقي نزيه؛ لأن من لا يملك ذلك منهم يكون وبالاً

---

(١) ابن قتيبة، أدب الكاتب، ص١٤.

على نفسه وعلى الناس، فيفسد حياتهم، ويؤثر تأثيراً سيئاً في سلوك الأجيـال، وفي علاقاتهم وأخلاقهم وفي حرياتهم واختياراتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وعموماً فإنه يؤدي إلى اعتلال صيغة الحياة اليومية التي يعيشونها.

وبما أننا نتكلم في بحثنا هذا عن الكاتب المؤمن الملتزم وصاحب الموهبة المسلم، فإن أول سبب من أسباب ترقية هذه الموهبة وتنميتها يتمثل في الالتجاء إلى العقيدة؛ فقد ذم الله تعالى الشعراء غير الملتزمين بالعقيدة والسلوك الطيب والعمل النافع بقولٍ نهائي حاسم، إذ بين جل شأ نه ذلك في سورة الشعراء فقال: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ الشعراء.

ويقاس على الشعراء في هذا الحكم كتّاب الأدب وغير الأدب،.. وقد استثنى ربنا سبحانه وتعالى من هذا الذم أصحاب العقيدة من الأدباء، الذين آمنـوا بعقيـدة الإسـلام، وألحقـوا الإيمـان والكـلام بالعمـل، وسـلكوا مسـالك الصـالحين خلقـاً وتصرفاً قولاً وعملاً، وكتبوا ما كتبوا من أجل هـدف واحـد هـو الانتصـار لقـوى الخير ولمبادئ الصلاح، التي تسير بالإنسان إلى شواطئ النجاة في الدنيا والآخرة.

وبهذا الاعتبار فالكاتب محتاج إلى الانطـلاق مـن التصـور الإسـلامي للكـون وللإنسان وللحياة، كي يستقيم لسانه، ويفلح عملـه، وينتقـل بالنـاس إلى سـاحات النقاء وميادين التعايش والسلام الاجتماعي والسياسي والحياتي، وإلا كان كالملاح في المحيط بلا بوصلة في ليلة عاصفة مظلمة.

وليس كالرؤية الربانية رؤية تقـوّم الإنسـان عامـة والكاتـب الطليعـي المـؤمن

بالإسلام والسلام في خضم الموج المتلاطم فتخرجه من الضياع الإنساني العصري خاصة. ولا تغرنك عظمة الأسماء المطروحة، وكمية الجوائز المزجاة لهذا الكاتب أو ذاك، فهذا كله مبني على رؤى ومنطلقات تائهة خلف النسخة الأصلية المتبناة من أصحاب الجوائز.. وإذا أردت التأكد من ذلك فانظر في محيطك، ثم انطلق إلى المحيط العالمي.. لتجد أن أعظم الأسماء وألمعها لم يقدم للإنسان طريقاً سديداً للخلاص.. صحيح أن بعض هؤلاء قدّم صورةً دقيقة وواقعيةً عن الذي يجري على الأرض بعجره وبجره، على أنه الشيء الإنساني العظيم، إلا أنه عندما اكتشف هذا البعض غرور هذا الواقع وأنه غير سديد الخطى، حاول التشخيص لكن واحداً من هؤلاء لم يقل للناس.. أين هو الطريق السديد، ولم يجب على الأسئلة الخالدة التي تواجه الإنسان في هذه الحياة إجابات سديدة، بل إنهم قادوا الإنسانية إلى جراح دميت وتقيحت ثم تحولت إلى حفار يحفر في أركان وأساسات الإنسانية وإيمانها ورشدها، بل إن اتجاهات كثير من الصور العصرية للكتابة أو ظلها الببغاوي أوصلا إلى هذه الفوضى الفكرية والسلوكية التي نراها اليوم، وإلى صيغة الهيمنة التي تسوق كل الأمم إلى مصير واحدٍ، تؤدي فيها هذه الأمم استحقاقات الرفاه لشعب واحد؟ أو شعوب بعينها، تحاول فرض رؤاها ومستهلكات عقولها المادية وروحانياتها الخاوية على بقية الشعوب بالقوة، تحت ذريعة العولمة وأذرعتها المتوحشة الظالمة المدمرة.

والخلاصة إن الكتابة ليست هدفاً، بل هي إحدى الوسائل لإنقاذ الإنسان من براثن الظلم الواقع عليه؛ من نفسه ومن محيطه القريب والبعيد، فإذا لم يكن الكاتب مؤمناً ذا عقيدة ربانية راسخة، تمتلك عليه لسانه وقلمه وأفكاره، ينظر بنورها، ويتكلم إذا تكلم بلسانها، ويجري قلمه على الورق بهدي منها، ونور ينطلق من شعاعها، حاملاً في كل ذلك رؤاها وأجوبتها المتعلقة بحياته ومماته وحياة الناس، وعلائقهم ومسيرتهم اليومية والمآل النهائي الذي تصل إليه هذه الحياة، نقول: إذا لم

يكن الكاتب كذلك، فإن منعرجات الهوى تستولي على فكره وعقله ومزاجه، فيضيع، ويضيِّع مَن خلفه، مهما نبغ اسمه، وعلا رسمه، أو أقبل الناس على قراءته، لأن هذا الإقبال حينئذٍ تابع لعملية الضياع، التي تدور رحاها الرهيبة في عالم الكتابة المعاصرة، إذ إن كمها الرهيب، ووسائلها الطاحنة، يأكلان كل توجهٍ جادٍ لإنقاذ الناس من محاولات العولمة للفصل التام بين الثقافة والقيم والمعتقدات، وذلك من أجل الابتعاد عن المعتقدات وقيمها، وإلقاء الإنسان في دوامة تبتلعه، بعد أن يصل حد الإعياء، ويفقد كل قواه وخصوصياته. وهو ما أكده قوله تعالى: ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ المؤمنون.

المبحث الثالث

تنمية الموهبة

٢- الاطلاع الواسع على فروع المعرفة

١- كلام في المعرفة:

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ ﴾البقرة .

كم تحن كلمات هذه الآية إلى حروف من ذاتها خرجت، وعلى هديها وفي حجرها ترعرعت ونمت وأغدقت، إنها حروف وكلمات رسول الهدى محمد صلى الله عليه وسلم، يقول فيها للناس – مع تغير الأزمان والأمكنة- (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين)[1] ... والدين هنا علم الحياة على تنوعه؛ ما يتعلق منه بشأن الإنسان مع ربه أو بالأمور التي ترعى شأنه في حياته اليومية، أو شأنه في مآله ومردّه، وكذلك شأن الفكر والرأي والنظريات التي تطور أساليب الحياة وتجددها وتحسن الحياة اليومية وتيسرها من علم طبيعي وسياسي وطبي وفلكي ونظر فلسفي حرّ مهتدٍ. وكل ذلك ممهور بخاتم كلمات الله الفذة: ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ الذاريات، فهذا الإنسان مخلوقٌ بقدرٍ، ولأمرٍ أراده الله، هيأ له كل الأسباب، لينتهي إلى النهايات التي رسمها له بعلمه القديم، فالأرض والسماء وما فيهن ومن فيهن، كل ذلك مسخرٌ باتجاه وضع هذا الإنسان – المقدر والمراد- في حومة التجربة البشرية الموجهة بكلمات الله العظيمة، التي هي أساس المعرفة الحقة،

(١) حديث شريف (متفق عليه).

فإذا حادت التجربة الشخصية لأي إنسان أو التجربة الجماعية لأي مجموعة بشرية عن خطوط الهدي الرباني في المعرفة، فإن ذلك قائد حتماً إلى بوار الحياة الشخصية أو الجماعية، مهما بدا للناس من مظاهر قد تخالف هذه الحقيقة، وذلك لأن هذه الصورة تشكل في الواقع اقتلاعاً لهذا الإنسان من جذوره، من فطرته، من الطريق الواضح النير إلى الظلمة والضياع. وهذا هو أصل وأساس كل ذلك الضنك الذي تعيشه البشرية اليوم، عندما ضيعت بوصلتها الربانية بسبب إعراضها عن الدين الحق، فراحت تتخبط وراء نظر كتّاب، وضعوا الهدي الرباني في قائمة المنسيات، أو في قائمة المتروكات الغابرة، وذلك ليجعلوا من أنفسهم وكلماتهم الهائمة على وجهها دساتير جديدة للبشر، فمنهم من أراد أن يجعل من الشعر – كونه شاعراً – بداية الفكر والعلم والنبع القديم[1] ومنهم الذين راحوا ينظِّرون للبشر ويفكرون عن الناس، ناسين أنهم مخلوقون لخالق رسم خطوط السعادة البشرية، وأبدع أصول النظر لهم. وجعلهم يفكرون ويختلفون ويجتهدون ويغدون ويروحون في ساحةٍ واسعةٍ من كيفية التنفيذ الأقرب للصواب، والأوسع لاستيعاب مستجدات الحياة وتطوراتها. ولقد جرى على هذا المنوال من التوجه معظم الكتّاب والمفكرين من المتغربين والعلمانيين واليساريين ومتبني الليبرالية الغربية ببغاوية عجيبة...، فبدوا منبتين في كتاباتهم الفكرية والأدبية وحتى العلمية عن فكر الأمة، وتوجه الناس فيها، وعن مجريات ووقائع الحياة اليومية فيها، وأصبح كل ما يكتبونه موجه إلى نخبهم وحسب، فلا هدف لهم ولا غاية، إذ أصبحت كتابة هؤلاء تتخبط في أزمة اتصال مع الجماهير[2].

(١) عبد المعطي حجازي – جريدة الزمان ١١/٨/ ٢٠٠٠ (باب ألف ياء).

(٢) هذا ما أكده كثير من الشعراء والكتّاب في ملتقى أصيلة الثقافي الدولي (آب ٢٠٠٠).

٢- موهبة مطلعة:

﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾[1]، ولا يؤخذ العلم وتنمى الموهبة إلا بالتعلم، ويمضي الإنسان حياته بين كونه عالماً أو متعلماً، ولا خير في غير ذلك، كما أوضح وبيّن وأكد رسول الله صلى الله عليه وسلم. فهذا آدم أبو البشر لم يكن يعرف شيئاً من العلم، ولكن رب العالمين كان معلمه، إذ قال جلّ من قائل: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾. وأشد الناس حاجة إلى العلم، وأحوجهم إلى التعلم، لتنمية مواهبه وإمكاناته التي منحه الله إياها، هو من وجد في نفسه موهبة الكتابة، ثم ندب نفسه للاشتغال بها، وإن أداة هذا التعلم المطلوبة، تتمثل في الاطلاع الدائم، والبحث المستمر، والتطوير والترقية، دون انقطاع.

إنّ الكاتب عامةً، والأديب خاصةً يتعاملان مع النفس الإنسانية برحابة اتساع خطوطها، وعمق تفاعلات مشاعرها، كرهها وحبها، غضبها ورضاها، صفائها، وعكرها، خيالها وواقعها، هدوئها وصخبها، وقارها وانفلاتها، حزنها وفرحها.. إلى آخر ما هنالك. كما يتعاملان مع ما يحيط بهما من عوالم إنسانية أخرى، وأمكنة وظروف وأزمنة، وحياة اجتماعية وسياسية وتاريخية وأدبية واقتصادية وفكرية. وما دام الأمر كذلك فإنّ مدى ما يجب على هذا الكاتب من الاطلاع، يكون واسعاً ومتنوعاً باتساع كل ما ذكرناه وتنوعه. وبزخم ما يبتغيه من حرية في القول، ومشاركة في المصير له وللناس جميعاً.

ولكن هناك قضية مهمة يجب أن ينتبه إليها كل متجه إلى الكتابة من المؤمنين المسلمين، هذه القضية هي أن هذا الاطلاع لا يقضي بالأخذ بكل ما يوجد من معرفة، بل إن هذا الاطلاع اطلاعٌ ناقدٌ، يعرض المعرفة المقدمة إليه على العقيدة وفروعها الإيمانية، التي تشكل الأرضية الرئيسية الأولى في قاعدة العقل المؤمن

---

(١) طه (١١٤).

وأساساته، وتحتل كل جزئياته ونظره ورؤاه؛ وذلك لأن هذا العقل المؤمن يعلم علم اليقين أن كل ما عدا العقيدة الإيمانية وأسسها المعرفية القطعية، ليس إلا ظناً خاضعاً لتقلبات الأوقات والأمزجة والمعارف الآنية، التي تتلبس الإنسان في لحظةٍ ما وظرفٍ معين ومعطيات محددة محدودة. ويشرح ذلك الأستاذ مصطفى صادق الرافعي إذ يقول: (لقد أثبت تاريخ الإنسانية أن هذا اليقين الساري فيها لن يكون غير الدين، فهو وحده معنى الجاذبية بين المعلوم الذي تبدأ النفس سيرها منه، وبين المجهول الذي تصير النفس إليه طوعاً وكرهاً، وما دامت الجاذبية فيه وحده فلن يستطيع شيءٌ غيره أن يقيم حدود الإنسانية، أو يحفظ ما يقيمه منها، وما غاية العلم إلا أن يكون قوة في هذه الحدود..)[1] والخلاصة في هذا الموضوع هي أن الكاتب المؤمن محتاج إلى تنمية موهبته، لتصبح موهبةً مطلعةً على التاريخ والاجتماع والأدب والفلسفة والسياسة والواقع والاقتصاد والفكر والفن وغير ذلك من مجالات المعرفة، وهو اطلاعٌ واعٍ فاهمٌ ناقدٌ، متعاملٌ بإيجابيةٍ، وسعةِ أفقٍ، ومرونةٍ، وحسنِ انتفاعٍ، واستيعابٍ بعيدٍ عن التماهي المذيب للحدود والخصوصيات، الداخلِ في صلب الضياع، الذي يجعل الإنسان مجرد ورقةٍ يكتب الآخرون على صفحتها البيضاء ما يشاءون ويرغبون. وصدق الله العظيم القائل: ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴿٧١﴾ ﴾المؤمنون.

٣- تقويم الأداء:

لكي يذهب الكاتب المؤمن في الطريق الآمن إلى آخره، عليه أن يتعرف أولاً على قيمة أدائه في فن الكتابة، الذي اتخذه مطيةً لغاياته التي آمن بها، ويشكل هذا التعرف جزءاً لا يتجزأ من عملية الاستفادة من الاطلاع. وفي خطوةٍ ليست بعيدةً عن واقع ما يحدث لكل كاتب، فإنّ معظم الكتّاب يقفون أمام أدائهم وقفة حساب

(١) إعجاز القرآن ص ١٢ نشر دار الكتاب العربي ط٨.

في لحظة ما، سواء أكانوا من الملتزمين بنهج التبليغ الإيماني أم من الذين هاموا في كل وادٍ، وسرحوا بأنظارهم وبصائرهم في مراتع الوهم الهائل، الذي أدخلته على الجميع معطيات عبادة العقل أو الإنسان الفرد أو المادة واللذة أو حتمية العولمة أو بالأحرى الأمركة.

والكاتب المؤمن الذي اتخذ التبليغ مهنة عظيمة.. هو أشد حاجة إلى مثل هذه الوقفة التقويمية الناقدة للأداء.. وذلك حتى لا يقع تحت طائلة المسؤولية الواردة في الآية الكريمة من كتاب الله القائلة: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ البقرة

فكيف يراجع هذا الكاتب أداءه..؟ وما هي الأسئلة التي يقوّم بالإجابة عليها هذا الأداء..؟ لا بد أنه مراجع لإنتاجه كله بين الحين والآخر طارحاً على نفسه الأسئلة الآتية:

١- ما هو مكان ما كتبت من كتاب الله، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم؟

٢- كيف كان الخطاب الذي احتوته كتاباتك؟

أ- هل كان قريباً من عقول الناس؟

ب- هل تطرقت فيه إلى واقعهم وأحوالهم؟

ج- هل كان أسلوبك وبيانك من النوع الذي يشد الأذهان؟

د- هل فيه معالجات وأطروحات ترقى بأحوالهم؟

هـ- هل بينت فيه أخطار ما يحاصرهم من فكر وحتميات تحاول معهم عملية تيئيس كي يستسلموا لما يطرح..؟

و- هل بعثت في خطابك الأمل في الخلاص؟

ز- كيف كان استقبال الناس للخطاب وما مدى تأثيره في سلوكهم؟

٣- هل دخل كتاباتك شيء من الفكر أو الأدب الدخيل الرديء دون علمك وذلك بتأثير الاطلاع والتنمية..؟

٤- هل كانت غاياتك وأهدافك واضحة بينة في كتاباتك لا تلجلج فيها ولا مواربة مضرة؟

٥- كيف كان مستوى الأداء.. هل هو متصاعد الجودة أم في نزول، أم في حالة ثبات؟

٦- ما هي الفوائد التي جنيتها من الاطلاع، وأين كانت مجيدة نافعة، وأين كانت عديمة الفائدة أو مضرة؟

فإذا تم لك ذلك، ووضعت علامات لكل سؤال، ثم جمعت حصيلة الحساب، نظرت، فإن كانت النتيجة عالية حمدت الله وأثنيت عليه أن وفقك لمثل هذا النجاح، وسعيت جاهداً للتطوير والتحسين، وإن كان الأمر غير ذلك، لُمْتَ نفسك وأنَّبتها، وسعيت من جديد كي تقوّم الاعوجاج بعد أن شخصته.. هذا والله أعلم.

المبحث الثالث

تنمية الموهبة

٣- الاطلاع الواسع والمستمر

١- البرعم يتطور:

أرأيت إلى البرعم يحاور خيوط الفجر. من أجل أن تتفتح أوراقه وتويجاته، وتنفض أكمامه عن أجفانها ندى النوم، وذلك لتدخل صخب الحياة، مسلحة بالشذى، ترسله إلى كل الأنحاء، لتحصل على الثقة ثم الإعجاب، ومن ثمّ التوجه إليها، كي يرشف منها المرتشفون ذلك اللون الرائع، والجمال المتناسق، والعطر الرباني الحالم .

إن ذلك هو مثل المبدع الملتزم، يتفتح ويتطور، وترتفع قامته وتنهض، إذ كلما ازداد حواراً مع كل ما حوله، فهو في صعودٍ دائمٍ، نهلاً من معين الثقافة الذي لا ينضب، بكل فروعها، بادئاً بأساساتها وقواعدها، ماراً بفروعها المتنوعة، منتهياً إلى الحاضر وما يدور فيه من تفاعلات ثقافية، يحتاج فيها إلى جواز مرور، يكون مذخوراً بتأشيرات الوعي العالي، والإيمان الواقي والهمة اللامتناهية، والقريحة المتجددة الإبداع، واللغة الخارقة لحصون العصر، التي تغلفت بجدران سميكة من الادعاء التقني المتفجر، محاولة تعميم ثقافة واحدة بعينها، لتكون سيدة الجميع، تحت مسمىً يبدو في ظاهره محبباً، لكنه مبطن من الداخل بسموم الهيمنة واستلاب كل الداخلين إلى محاضنها، وتحويلهم إلى سدنة يخدمون رفاه شعوب أسياد (العولمة).

ولا بد لهذا البرعم الموهبي المؤمن من حيازة التحلي ببراءة متمردة على ثقافة الاستسلام، التي راحت تغزو أسواقنا الثقافية، وذلك من أجل أن يكون صوتاً يقاتل لإيقاف عملية تقديم الشهداء لمحكمة الإرهاب، وناطقاً رسمياً باسم خصوصية الهوية، التي ميزت هذه الأمة بكتابها الكريم وبآيات الله البينات، التي

تفيض بالحرص على الإنسان، يبرزه بيان بلاغي معجز، حق لكل برعم أن ينطلق من التعرف عليه ابتداءً، تعرفاً إيمانياً عقدياً أولاً، ثم ليسوح في معجزاته البلاغية البيانية التي لا تنقضي عجائبها، ولا ينتهي تجدد معانيها، ولا تلألؤ ألفاظها وحروفها الفذة. حيث من هذه النقطة بالذات تبدأ حركة تطور البرعم، حركة واعية مبصرة، شامخة التطلعات، موفقة الخطوات، راسخة في العلم والفهم والتعبير، قابلة راضية معتزة بالمنة العظمى التي امتنها الله على الإنسان إذ قال: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ٤ ﴾ سورة الرحمن

٢- آفاق الاطلاع:

إنما صنع الكلام لإفادة المعاني، والبلاغة فيه أن تبلغ به ما تريد من نفس المخاطب من إقناع وترغيب وترهيب وتشويق وتعجيب أو إدخال سرور أو حزن أو غير ذلك .. فالبلاغة ملكة روحية وأريحية نفسية، وليست صناعة لفظية محضة، لا بد من الاهتداء إلى أسباب تجعل الكلام مؤثراً.[١]

وبناءً على هذا نستطيع القول: إن الكلمة تاريخ ولغة وفقه وقانون وعلم، وخبرة إنسانية وتجربة حياتية، وحالة نفسية ذات معان عميقة وعاطفة جياشة ممتزجة بلفظ معبر، وفلسفة تميل إلى بناء الحياة على أسس فكرية، وإرادة جماعية. فمتى كانت الكلمة المزجاة جامدة ميتة غير ناطقة بكل هذا الذي ذكرناه، أصبحت غير ذات قيمة أو جدوى كما ذكر الرافعي في إعجاز القرآن صفحة (٢٠).

ولقد نقل عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها كلاماً داعماً لما أوردناه، واصفة به كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وبيانه، فقالت: (ما كان رسول الله

(١) هذا الكلام من مقدمات كتاب دلائل الإعجاز - عبد القاهر الجرجاني ص ٧. ط ٢ دار المعرفة - بيروت.

صلى الله عليه وسلم يسرد كسردكم هذا، ولكن كان يتكلم بكلام بيّن فصْل، يحفظه من جلس إليه).. وهذا يعني أن كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في القمة من البيان، (بين فصل) فيه النفع والفائدة والحلول والخبرات والتاريخ المفيد، والعلاج الناجع، والفهم الواضح النير المبصر، المخترق لحصون المعتدين الظالمين، السالك بلين وقوة قلوب المؤمنين، البين، المداوي الهادي، المتعامل مع حياة الناس بما يرقيها، ويرفع تطلعاتها.

من كل ما تقدم نستطيع تحديد مجالات الاطلاع، وعناصر الثقافة المطلوب من صاحب الموهبة حيازتها، إن أراد تنمية موهبته والارتفاع بها:

أ- العيش مع القرآن وتمثل تعاليمه، والتعرف على علومه، والدخول إلى معالم بيانه وبلاغته، وإعجازه الذي يخترق العصور والجغرافيا، فالقرآن هو المدرسة الأولى والأساسية لكل الشادين المبتغين ركوب صهوات البيان، الكاتبين بلغة الضاد، المتعاملين مع شعوب العرب والإسلام المقبلين على اختراق جدران الثقافات، المحصنة بالعناد والظلم للنفس وللغير، ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ **الإسراء ٩**

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ **الزمر.**

والقرآن هو تاريخ وأساس وإمداد لثقافة وبيان لغتنا وأمتنا، وهو الذي يقيم أداءها على الوجه الذي نطق به أصحابها الأوائل، وييسر ذلك لأهلها في كل عصر: (ولولا هذا الكتاب الكريم لما وجد على الأرض أسود ولا أحمر يعرف اليوم ولا قبل اليوم كيف كانت تنطق العرب بألسنتها، وكيف تقيم أحرفها وتحقق مخارجها، وهذا أمر يكون في ذهابه ذهاب البيان العربي جملته أو عامته.[1]

(١) إعجاز القرآن، مصطفى صادق الرافعي ص ٨١

ب- أن تتفتح البراعم من نسغ السنة وبيان رسول الله صلى الله عليه وسلم: فهو امتداد وشرح بيان السماء إلى الأرض، وفعل تعاليم رب العالمين متمثلة بحركة بشر نبي، يعيش بين الناس يؤاكلهم ويشاربهم، يدعوهم ويجاهد بنفسه وبهم، ويرعى شؤونهم ويتقلب معهم بحلوها ومرها نصرها وتراجعها .. فهو البيان العملي الفذ للإسلام في هذه الأرض ومع الناس. وهو الأساس الثاني بعد القرآن في البناء الثقافي وتنمية موهبة الموهوبين بصورة صحيحة سديدة.

وقد وصف الرافعي بيان رسول الله صلى الله عليه وسلم بكلامٍ جميلٍ إذ قال: (هذه البلاغة الإنسانية التي سجدت الأفكار لآيتها، وحسرت العقول دون غايتها، لم تصنع وهي من الإحكام كأنها مصنوعة، ولم يتكلف لها وهي على السهولة بعيدة ممنوعة)[1] وإذن فالعيش في ظلال هذا البيان والتعامل معه ركن ركين من أساسات ثقافة صاحب الموهبة .

ج- الأخذ من كل علم وفن بطرف:

بين ابن قتيبة في مقدمة كتابه (أدب الكاتب) ما يحتاجه الذي يشدو موهبة الكتابة من أدوات وسعة اطلاع بما يلي:

- أن يشدو شيئاً من الإعراب – وأن يتعرف على شيءٍ من علم الهندسة والرياضيات

- ولا بد له من النظر في جمل من الفقه .

_ كما لابد له من معرفة أخبار الناس ومعرفة أحوالهم وأقدارهم وأوضاعهم، وما يصلح لهم أن يخاطبوا به (أي أن يعرف شيئاً عن الفلسفة والاجتماع والنفس والأدب الخاص والعام).

- والاطلاع على الكتيبات التي وضعها ابن قتيبة من أجل من يريدون دخول

---

(١) إعجاز القرآن ص ٢٧٩

معترك التبليغ عن طريق الكتابة وهي كتب خفاف، يشتمل كل منها على فن من الفنون والعلوم كما قال ابن قتيبة .

د – وأضيف في هذا الباب ما يفيد صاحب الموهبة العصرية في تنمية موهبته، وهذه الإضافة تتمثل في البنود التالية:

- الاطلاع على ثقافات الشعوب الأخرى وآدابها وفلسفاتها
- معرفة أسس التقنيات المعاصرة
- الاطلاع على تراث أمته في مختلف الفنون وتاريخها السياسي
- وأن يشدو شيئاً عن تاريخ الأمم الأخرى.

وحتى لا نكثر على صاحب الموهبة، ونطيل عليه بقوائم طويلة عريضة، قد توقعه بالإحباط، فإننا نقول: ليس المطلوب من صاحب الموهبة أن يكون عالماً ضليعاً بكل ما ذكرناه، بل المطلوب أن يكون لديه اطلاع وإلمام بما أوردناه، بحيث يستطيع استعماله في خطابه البلاغي الإبلاغي، بشكل يجعل لخطابه قوة وقدرة على الاختراق، خصوصاً في عصرنا الحاضر، الذي اتكأ على كم هائل من الثقافات الزائفة والتقنيات الفتاكة.

(وبما أن الكلام: هو الذي يعطي العلوم منازلها، ويبين مراتبها، ويكشف عن صورها، ويجني صنوف ثمرها، ويدلُّ على سرائرها، وبه ميّز الله تعالى الإنسان من سائر الحيوان)[1] فإن صاحب الكلام الذي يمتلك أكبر مخزون ثقافي في ذاكرته، ويحسن استعمال هذا المخزون في كلماته، يستفيد أيما فائدة من ذلك كله في رفعة قلمه وبلاغة إبلاغه. وإعطاء التراث حياة جديدة مناسبة للعصر.

٣- الحصن الحصين والمرجعية القويمة:

لقد كان القرآن وثقافة القرآن والسنة النبوية المرجعين القويمين الثابتين لكل

(١) أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني ص ٥

الشداة في باب الكتابة، وذلك إذا أرادوا لشخصيتهم أن لا تتماهي في شخصيات الآخرين وثقافاتهم وحضارتهم، وقد شكل الاعتماد المعاصر على ثقافات الآخرين والرضوخ للأبعاد المعنوية لمنتجاتهم المادية والحضارية والفكرية، إضافة إلى الجهل التام أو الجزئي بثقافة المرجعيات والحصون الأساسية للأمة، أقول شكل ذلك ارتداداً كارثياً في موقف ومكانة أمتنا، مما جرّ إلى هذه الأوضاع المزرية التي تعيشها الأمة؛ من تخلف وضعف وذيلية.

ولقد كان من نتائج الجهل بالمرجعية القرآنية والسنة النبوية، أن كرس أهل هذا الجهل مجهوداتهم الكبرى للهجوم على اللغة العربية الأداة العظيمة لثقافة المرجعية الحصينة. فقامت دعوات تجحد فصاحة هذه اللغة وبلاغة مرجعياتها، و تسعى إلى تفجير هذه اللغة بالأساليب المتمنطقة بقنابل الحداثة الزائفة، ونبذ أساليب الأجداد والانقطاع عنها نهائياً. بل إن البعض دعا إلى ترك الفصحى والخوض في غمار العامية والفوضى، وذلك من أجل قطع الوصل بين الحاضر والماضي ليأتي المستقبل تافهاً ضائعاً. ووصل الأمر بالبعض أن تجرأ على الدعوة لهجر الحرف العربي والكتابة بالحرف اللاتيني كما فعل (أتاتورك) المجرم في تركيا الذي اتخذ الحرف اللاتيني بدلاً من الحرف العربي لكتابة اللغة التركية. لذا فإن ناشئة الكتاب من الموهوبين المؤمنين مثقلين بالمهام العظام التي يتمثل أهمها وأعظمها، بإعادة الرونق والجلاء للاعتماد على المرجعية القرآنية النبوية القويمة، تلك الإعادة التي راحت تأخذ مكانها في مقدمة البناء الثقافي لمجتمعات الأمة العصرية، على يد العديد من عمالقة الثقافة الإسلامية العربية المعاصرة.. ولكن الطريق لاحب وطويل، ويحتاج إلى تتابع الأجيال وتراكم الخبرات ،وعمق الانتماء، ولمزيد من الأسماء المليئة بالنماء والتطور والمعاصرة والمعبأة بالمرجعية الأصيلة المتصلة القويمة الحصينة.

المبحث الرابع

المران والتجريب (تطوير الموهبة)

تعينت الموهبة، وأينعت بوادرها، وهبت على النفس الكاتبة محاولات التجربة، واستيقظت القريحة، وحانت لحظة القطاف، ودخل الوقت؛ وقت الجد، وامتلأت أوعية الفكر، وأزهر الليمون في حقول الموهبة، وراحت الهمة تراود القلم، ليسطر أول الكلمات، لكن ساقية الجميع ما تزال بطيئة العطاء، شحيحة الود، تتدفق حيناً، لتنز نزاً أحياناً كثيرة، وأنت.. أنت يا صاحب الموهبة تنتظر خوض اللجة على أحر من الجمر، تريد أن تذهب في بحر الكتابة أبعد شوط، مغامراً بالبدايات، من أجل الوصول العاجل، ظناً منك أن الحلم ذو جناحين شديدي المراس، وبهذا يسلمك التعجل لقطف البراعم قبل تفتح تويجاتها، وقبل وضع القدم الأولى مرات ومرات، لتجس الديار، وتختبر التربة، هل هي طرية تنزلق القدم فوقها بدون أنيس؟ أم هي صلبة متماسكة مختبرة متراصة مجربة، لا تخاطر اليد بالرسم فوقها، ما دام المداد يزرع الثقة في أرجاء الساقية ذات النبع المدرار.

إنك إن فعلت ذلك، تكون قد خضت التجربة نائياً بنفسك وقلمك عن امتلاك نواصي الأقلام والفكر والأساليب والصياغات، وبالتالي قادماً تقاتل في ساحات لم تختبر بنفسك وعورة مسالكها، وتلون فنونها، ولم تستعرض جهودك بصورة مبدئية مع من سبقك، ومع من هو ناصحك وموجهك، وبكلمة مختصرة لم تبدأ البداية السليمة التي تتطلب منك لكي تنجح أن تسير الخطوات مثقلاً بداية بسؤال طويل عريض، قد طرح عليك مرات ومرات، لكنه الآن بعد أن تعينت الموهبة، وهبت رغائب خوض التجربة، يلح في الطرح ليقول:

أ- عفواً ما الذي تهدف إليه تماماً؟

وها أنت تجد نفسك أمام الصدى يتردد في جنبات نفسك، وفي عميق فؤادك المؤمن ليؤكد:

- أنك وجدت في جعبتك امتلاك سهام ناصية الكلمة واستخدامها كأهم وسيلة من وسائل البلاغ الرسالي..

- وأنك تريد أن تضيف صوتاً بلاغياً جديداً متميزاً، ينتصر للمعنى البلاغي الإيماني..

- وأنك بهذا تعمل في المجال المناسب الميسر لما خلقت له

- وأنك جاد في معركة الذود عن حياض الحق بالكلمة العليا، وذلك لكبح جماح الباطل، وكسب الساحة لإنقاذ الإنسان من كل التزوير، الذي يطل عليه من بوابات الاتصال المختلفة ليل نهار، وأنك مستعد لدفع الثمن الذي يترتب على خوضك التجربة، وقد يكون ثمناً باهظاً في الكثير من الأحيان. فإذا أنت أيها الموهوب سمعت كل ذلك الصدى يتردد، ووقفت على الأهداف، وعرفت ماذا تريد، وفي أي الاتجاهات تسير، انطلق سؤالٌ آخر يقول لك:

ب- كيف تصنع في البدايات؟.. حين تجد نفسك أمام بوابتين؛ إحداهما مباشرة، والثانية تأتي فيما بعد..

١- فأما حالتك أمام البوابة المباشرة فتحتاج إلى أمرين اثنين:

أ- فحص المعاناة..

لما كانت الكتابة الصادقة المؤمنة ناتجة بصورة أكيدة عن المعاناة التي يواجهها الكاتب، ويحس بها تتفاعل في دواخله، مقابل ما يرى وما يقرأ وما يسمع، وما يعامل به من جميع الذين يحيطون به، فإن هذه المعاناة هي التي تولد الفكرة، وتفتح أبواب القريحة لدى صاحب الموهبة، ومن هنا فإن عليه مباشرة أن يتناول القلم والقرطاس ويسجل الفكرة المتولدة، ومحاور معالجتها، قبل أن تغيب في طيات المشاغل اليومية، فيبحث عنها فلا يجد منها إلا أطلالاً باهتةً غير مكتملة التكوين.

والمبدع في الكتابة، الذي يبتغي أن تُسمع أفكاره، ويؤخذ بنتيجة معالجاته لمعاناته، هو ذلك الكاتب الذي يختار لكل موضوع من موضوعاته المستجد من المعالجات والأسلوب والأفكار وذلك ليثير الانتباه، ويصنع إضافةً جديدةً، تستحق عناء الاطلاع والقراءة وصرف الوقت، بل وتنشئ حواراً وأخذاً ورداً واهتماماً وإثارةً إيجابية، ينتج عنها مزيداً من التسويق والانتشار وتركيز المكانة والمكان والاعتراف الراسخ، ويكون ذلك كله بعد الكثير من تقليب التفكر بالمعاناة وفحص تشكلها وعناصر تكونها في نفسه ومظاهر تقلبها في خارجه والمحيط ومدى قوة

تأثيرها، وصمود حجتها، والاستجابة لها سلبياً، أو إيجابياً وأسباب ذلك كله.. ومن ثم يأتي دور

ب- التجريب والتمرين: وهما يبدآن بارتياد الأرض عن طريق المزاولة المغلقة أولاً (أي غير المنشورة) وهذه المهمة تحتاج إلى مخالطة المجربين ومحاولة محاكاتهم، واستشارتهم في كل البادرات الكتابية.. ثم الإعادة والتصويب والتركيز.. حتى إذا لاقت بعض البادرات استحساناً وقبولاً وثناءً، دفع بالبادرة إلى الأمام نحو النشر، ثم الواحدة تلو الأخرى، حتى تبلغ مبلغ رسوخ القدم، وقد تستمر هذه الحالة زمناً ليس قصيراً، فلا ييأس صاحب الموهبة ولا يكل، ولا يتراجع.. فكل مريد يحتاج إلى من يسهل له الطريق، ويشذب السلوك، ويرقق اللسان والقلب.. وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له أبو بكر رضي الله عنه: (لقد طفت في العرب، وسمعت فصحاءهم، فما سمعت أفصح منك، فمن أدبك (أي علمك)؟ قال: (أدبني ربي فأحسن تأديبي).

ولتعلم أخي المقبل على الكتابة أنك مقبل على فن وعلم عظيمين كريمين عاليين في الغاية والوسيلة، وذلك لأنك في إقبالك هذا حامل هم الإبلاغ الرسالي السامق، وقد قيل في ذلك: (إنك لا ترى علماً هو أرسخ أصلاً، وأبقى فرعاً، وأحلى جنىً، وأعذب ورداً، وأكرم نتاجاً، وأنور سراجاً من علم البيان، الذي لولاه لم تر لساناً يحوك الوشي، ويصوغ الحلي، ويلفظ الدرر، وينفث السحر، ويقري الشهد. والذي لولا تحفيه بالعلوم، وعنايته بها وتصوره إياها لبقيت مستورة، واستولى الخفاء على جملتها) وفي ذلك ما فيه من ضياع الحق، وخفوت صوته، وانتشار الجهل وعلو مكانته.

وأما الثانية التي تأتي فيما بعد فهي:

٢- النزول إلى الساحة:

وفي هذه المرحلة يكون صاحب الموهبة قد غدا داخل المهنة، وفي طلب المهمة الغالية، وهو في هذا محتاج لأن تكون خطواته متجهة إلى الأمام دائماً وأبداً.. فيتوقى الهنات والنزول والخذلان، وهو في ذلك لا يمكنه بلوغ مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم البياني – لكن حسبه إذ بلغ مرحلة المهنة- الاقتداء في بيانه

صلى الله عليه وسلم ما وسعه الاقتداء؛ فيتنزه قدر الإمكان عما يعتري أصحاب القلم واللسان من العيوب التي تنزه عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ قال صاحب إعجاز القرآن في ذلك: (لا يعتري رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يعتري البلغاء في وجوه الخطاب وفنون الأقاويل؛ من التخاذل، وتراجع الطبع، وتفاوت ما بين العبارة والعبارة، والتكثر لمعنى بما ليس فيه، والتحيف لمعنى آخر بالنقص منه، والعلو في موضع والنزول في موضع..)[1].

وأول ما يتبادر إلى الذهن لتقديمه نصيحة لكل من يتقدم من الكتاب المؤمنين إلى الساحة لينزل فيها، هو أن يكون متمكناً واثقاً من انطلاقه من خلال عقيدة راسخة تقول: إن الحقيقة الكلية لهذا الكون ولهذا الإنسان ولهذه الحياة ومآلها جميعاً ومصائرها إنما هو معروف وثابت ومثبت فيما نزل على قلب رسولنا الكريم من آيات الله وما جرى على لسانه من وحي يوحى، وهو (أي الكاتب) غير محتاج للتجربة داخل نفسه أو داخل غيره أو فيما يحيط به ليجد الأجوبة الكبرى على تلك الحقائق الإيمانية الكبرى؛ إذ إن الكثيرين من كتاب الغرب وأدبائه وفنانيه ومن نهج نهجهم داخل أمتنا تاهوا وضاعوا في الجري لاكتشاف الحقيقة، فحولوها إلى محاولات تدميرية للغة وللتراث وللقيم ولكل معنى إيماني على اعتبار أن هذا الذي يخوضونه إنما يمثل ثورة على واقع وتاريخ وقيم قمعية وسلطوية وغير سلطوية، وهو ما جعل هؤلاء أعضاء خارجين على مجتمعاتهم منسحبين منها راكضين خلف أمزجة وأهواء فردية مهزومة داخلياً وخارجياً، مريضة بمجموعة من الأفكار الفردية النزعة، النرجسية الرؤى والعمل، عدوة لمنطق التغيير والتطوير المنسجمين مع طبائع الأشياء، وسيرورة التاريخ، والمحكومين بالثوابت والمتغيرات، ومن هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر: سارتر الذي نبذ في أخريات حياته أفكاره السابقة عن الوجودية، وماركس الذي نبذ الواقع مقولاته في حتمية التاريخ، وبالبرولتياريا، وصيرورة الناس إلى الشيوعية، وغيرهم كثير. ولسوف نتطرق في الحلقات القادمة (إن شاء الله) إلى كيفية السير قدماً إلى الأمام دون تعثر.

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص ٢٨٦، مرجع سابق.

المبحث الخامس

السير قدماً

التأكيد الملح على العقيدة والسلوك

١- لماذا التأكيد:

ليست الكتابة عبثاً من العبث، ولا هي نـزوة نفـس تائهـة، تخـط باليـد مـا لا تعرف عاقبته ولا موقعه من الناس ومن الأخلاق والمآل والأثر. إنها أمانة وعنوان: أما كونها أمانة، فلأنها كسائر المواهب التي منحها الله لهذا الإنسان، بل تزيد عليها، كونها ممتدة التأثير والتحكم بالناس وأخلاقهم وعـاداتهم وعلاقـاتهم، وهـي بهـذا المعنى والأثر أمانة عهد بها الله لبعض الناس، يجب حفظها، وحسن التعامل معهـا، وربطها بالدين والسلوك السوي والتقوى والعقيدة السليمة.

وأما كونها عنواناً: فهي مفتونة بالعقل والتدبر، وبوابة للفكر النير، تخـرج مـن قلب نازف بالتجربة والخبرة والمعاناة البريئة، لترتطم بالقرطـاس ذوبـاً لطـرف قلـم أقضته مضاجع الغفلة، وكظمت غيظ عواطفه كلمات الله وتعاليمه، فهي كما قـال زياد: ما قرأت كتاباً قط لرجل إلا عرفت مقدار عقله فيه، أو كمـا قـال طـريح بـن إسماعيل: (عقول الرجال في أطراف أقلامها، أو كما وجه يزيد بن المهلب ابنه حين استخلفه على خراسان فقال له: (إذا كتبت كتاباً فأكثر النظر فيه، فإنما هـو عقلـك تضع عليه طابعك)[1].

وفي قـــول الله تعـــالى: ﴿ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ [البقرة: ٧٩] مندوحة عما سواه في إثبات أن الكتابة أمانة، وأن الكاتـب رقيب نفسه، وحسيبها على ما تخط يده ويراعه براعة؛ لأن الويل ينتظـره إن لم يـؤد

(١) الأصبهاني، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، ج١، ص١٠٠.

الأمانة، كما علمه الله إياها، ولذلك أردت في هذه السطور أن أعود لأؤكد على امتلاك العقيدة السليمة لعقل ويراع الكاتب، تتحكم بسلوكه، وتوجه موهبته، وتبني خبرته، وتصنع خياله وعبقريته، ليصبح إذا خط بيده فكره كما وصفه ابن المعتز في شعره:

إذا أخذ القرطاس خلت يمينه تفتح نوراً أو تنظم جوهراً

٢- محاولات لاكتشاف الحقيقة بعيداً عن العقيدة:

قال ابن الجوزي في كتابه (صيد الخاطر): (إن التكليف هو الذي عجزت عنه الجبال ومن جملته أنني إذا رأيت القدر يجري بما لا يفهمه العقل، ألزمت العقل الإذعان للمقدر فكان من أصعب التكاليف، وخصوصاً فيما لا يعلم العقل معناه؛ كإيلام الأطفال وذبح الحيوان مع الاعتقاد بأن المقدر لذلك والآمر به، أرحم الراحمين)[١]. إنها خلاصة عقيدة، العود فيها إلى ما قاله الله وقدّره، وإلى ما نزل به الوحي وشرحه وبينه رسول الله صلى الله عليه وسلم، والحقيقة فيها تكون مرجعيتها قواطع وثوابت العقيدة، وليس الهوى والنزوة، أو العقل الذي نشأ وتربى في حضن الوهم، وأوهام النفس المريضة البعيدة عن الله. إن الحقيقة كل الحقيقة تجدها في راسخات كلمات الله المحكمات، وفي بيان رسوله القطعي المحكم. وفيما أجمع عليه المؤمنون في كل عصر ومصر، فلا تجري في البحث عن الحقيقة جري من أعشته كلمات تقال، ويراد بها الخداع؛ مثل قولهم: إنه لا أحد يمتلك الحقيقة!! فهذا كلام مخاتلٌ فاسد الطوية، عقيم الفهم والإدراك، ويراد به إخراجك أيها المؤمن من دائرة الاطمئنان والراحة النفسية إلى دوائر التوه، حيث لا تصل بعدها إلى أي يقين، وتمتلئ نفسك بشتى الأمراض، وتمتلك أمرك دواخل متقيحة متعفنة، غافية في طين لا ترفع عيناً عن جسد، ولا ترنو إلا من نافذة خيال لا يغادر النزوات ولا يفهم الواقع أو يرد عليه إلا من خلال ردات فعل كتابية وعملانية سلبية، مبحرة في تلك الدواخل التي شرحنا حالها، وهو ما أراد أصحاب القول بعدم امتلاك أحد للحقيقة

---

(١) ابن الجوزي، صيد الخاطر، دار الكتب العلمية، ص٣٦

أن يصلوا إليه فوق رواحل من بناء فن كتابي، جعلوه حركة حملت كما قال أحد الناقدين: (الآثار المدمرة للواقع) في جريها خلف المثاليات النظرية الفلسفية، التي بنيت على مرجعيات تائهة في ضباب العقل البشري، القاصر عن إدراك سر كيف ولماذا، في كثير مما يدور حوله.

لذا يجب تنبيه الكاتب المؤمن إلى هذا المعنى الخطر، كي يحمي نفسه بالاطمئنان إلى الحقيقة المركوزة في عقيدته، كما وجب التأكيد على ذلك أكثر من مرة، من أجل تنبيه وعيه بمهتمين موكولتين إليه في هذا الخضم، ينميها بالمران والتجربة أولاهما: سيره دائماً إلى الأمام، وثانيهما: تعلق بصره وخياله بخدمة الإنسان الحثيثة في مهنته.

٣- انتفاش الباطل:

وينتفش الباطل، ويفرد ريشه، وذلك من أجل إحباط الحق الذي تحمله أيها الكاتب المؤمن، فلا يغرنك تقلبه في البلاد، ولا يوهنن عزيمتك أنك ترى وتسمع وتشاهد حفلات (الزار)، تقام في شتى الأرجاء، من أجل تكريم الشذوذ والاعوجاج، في محاولات لحرف مجرى نهر الحق، وجعله معزولاً عن التيار. ويتجلى هذا الانتفاش بصور شتى منها:

- الصخب الإعلامي الذي يثار حول هذا الكاتب أو تلك الشخصية، بحيث ينقلب الفن إلى صفقات تديرها عقول وأيد مشبوهة، تبتغي الترويج لمن يقدم الخدمة الأكبر لأصحاب اتجاهات الهيمنة واستغلال الإنسان عامة؛ وذلك لغايات أنانية فردية أولرفاه جنس معين من البشر.
- الدعم والحماية المباشرة لمن يخدم بقلمه فكر الهيمنة، والترويج له ولصوره العملية الحياتية الباطلة، وذلك عن طريق دعم وتسهيل سبل الانتشار، ودعم وتسهيل وسائل الاختراق للمجتمعات، من أجل قيادتها نحو الالتزام بالباطل بعد بروز صورته المنتفشة.
- جواز المرور المفتوح إلى كل المناصب القيادية والثقافية، وإلى الهيمنة على

معظم وسائل الإعلام الفعالة، بحيث يصبح الباطل من خلال هذه الترتيبات طعام الناس وشرابهم، الذي يشاهدونه ويسمعونه ويقرأونه ليل نهار، ليحاط بهم من كل الاتجاهات، فلا يرون إلا ما يرى أهل الباطل المنتفش على طريقة فرعون الموصوفة في القرآن الكريم: (ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد).

وبهذا يتوه السلوك العام، وينحدر، وتلهث السرائر والعلانيات البشرية خلف السراب المقروء والمسموع والمرئي، المبتغي تدمير هذا الإنسان، وجعله ترساً يدور لخدمة الآلة الصماء الكبرى، التي تاهت هي الأخرى خلف شهوة الحياة والرفاهية غير المتوازنتين، وغير المدركتين لمعنى الوجود الإنساني الحق في هذا الكون.

٤- تهافت ما يكتب بعيداً عن القضية:

مضت عقود طويلة منذ انطلاق هرطقات كتاب الشعر الجاهلي ومستقبل الثقافة في مصر لطه حسين، ومروراً بالإسلام وأصول الحكم لعلي عبد الرزاق، وترتيبات سلامة موسى، وتخرصات لويس عوض، وتحرير المرأة لأحمد أمين، وانتهاء بديكتاتوريات العلمانيين واليساريين، ومحاولات إقصائهم للإسلام، وتصفية كل من ينادي به مرجعاً كاملاً صالحاً شاملاً لكل مجالات الحياة، ثم محاولاتهم اليائسة لدس السم في قراءات الناس ومشاهداتهم عن طريق الإبداع الأدبي الموبوء بالخنا والاعتداء على المقدسات والمسلمات الإسلامية، والترويج لكل ذلك خدمة للفكر التدميري، الذي يبتغي إقصاء أمتنا وتهميشها. غير أن كل هذا الغثاء المتهافت من الفكر والسلطوية وما يزعم أنه (أدب)! لم يستطع أن يغير مسار الإسلام في تأثيره على مجتمعات المسلمين واحتضان المسلمين له بعقولهم وقلوبهم وعواطفهم وفي كثير من تحركاتهم اليومية.. وذلك رغم ما قُدّم للفكر التدميري من دعم مالي وإمداد إعلامي، وترويج سوقي، وتسهيلات مرورية إلى سطح الحدث، وأخيراً ما قدم له من احتضان سلطوي، سُخِّر في خدمة القمع والفردية.

فهل للإخفاق النسبي لأهداف أصحاب الهرطقة من أسباب؟:

نعم.. فإن الانطلاق في الكتابة بعيداً عن المعرفة الربانية الحقة والعقيدة الإسلامية ومصدرها الأول والأساسي، يوشك أن يقود هؤلاء الناس إلى البوار والخبال في ميادين الحياة، مما يجعلهم يتخبطون، ويهيمون على وجوههم، جرياً خلف الأجوبة الضالة الحيرى على الأسئلة الكبرى، التي تواجه الإنسان في حياته وما يعتريها من مفارقات وملابسات وتقلبات، وعن مصيره ومآله، وما يعنيه هذا المرور القصير في الدنيا. وباختصار: عن موته وحياته، مرضه وصحته، فقره وغناه، وصعود الأمم وزوالها: إلخ ما هنالك من أسئلة، لن تجد لها جواباً حقاً إلا إذا رسخت عقيدة الإسلام السهلة البسيطة في صدرك وقلبك، وانطلق فيها عقلك وقلمك.. لأن الفلاسفة والمفكرين الذين استغنوا بعقولهم عن كل فكر آخر، وأنهكوا تلك العقول بحثاً وتقليباً لوجهات النظر في الأمور التي ذكرناها جميعاً بدون الهداية الربانية. لم يكتب واحد منهم جواباً يسد جوعة الناس لمعرفة الأجوبة السديدة.. واستمرت الحيرة والظلمة تسد أفق جميع البعيدين عن المعرفة الربانية، وظل المسلم المؤمن وحده – كاتباً كان أم أميّاً- هو صاحب الطمأنينة والراحة النفسية المتولدة عن الإجابات الشافية المهتدية الصادرة عن الله نبع المعرفة وأصلها.. ورغم أن ورثة الركام الفكري والمعرفي غير المستمد من النبع يصولون ويجولون اليوم بالمعارف المادية العلمية والتقنية، فإنهم في الحقيقة يقفون مذهولين أمام الاطمئنان اللامحدود الذي يتربع داخل حياة المؤمنين، رغم قصورهم التقني، ذلك لأن إجاباتهم السريعة والواثقة عن كل الأسئلة المحيرة، تَشْدَهُ أؤلئك العابثين، وتبعث فيهم ردات فعل غير متعقلة، بل خرقاء حمقاء متكبرة، تصدر عنها كتابات ذات صورة أصلية غربية غائمة السحنة، تائهة المعالم وصورة مقلدة تابعة، فهي أشد توهماً من الأصلية وأعظم في الضياع منها؛ ففي حين يقول رب العزة في محكم تنزيله: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ ﴾ الذاريات ، محدداً معنى الحياة والعالم وغايتهما بأنهما مخلوقان لغاية عبادة الله وتسبيحه وذكره وترقية وسائل ذلك

كله مع امتداد الزمن، فضلاً عن ترقية الحياة ووسائلها، وإعمار الأرض ليساهم ذلك في خدمة المهمة الرئيسية وتسهيلها، تجد رجلاً مسلماً ذا شأن في الكتابة والفكر مثل أحمد أمين يقلد الصورة المستوردة للمعرفة التائهة، ليسجل على نفسه في كتابه "فيض الخاطر" أفكاراً ممسوسة بالبعد عن الله، مثل قوله: (لترى كيف تلعب الطبيعة بالإنسان لحفظ النوع)[1]، أو مثل: (وكل ما وضع من مبادئ أخلاقية، وقواعد قانونية، إنما دفعت إليه الطبيعة لخدمة هذه العناصر الثلاثة)[2] أو مثل تقريره أن العلم كله يعمل كوحدة من أجل غاية واحدة هي (تحسين النوع)[3].

فالطبيعة هي المحركة وهي الصانعة للمبادئ والأخلاق والتشريع، والغاية تحسين النوع.. وأين إذن الأجوبة الشافية التي وضحت سر وجود الإنسان وحياته ومماته وتحولات الأمم وزوال الحياة ومصير الإنسان؟ لا شيء سوى الدوران داخل فكر غربي لم يشفِ غليل أصحابه، فتراجع أكثرهم عنه، ومن ثم التردي في مراتع الخبال، ولا يتسع المقام لأمثلة كثيرة من الكتابات العقيمة، التي لا تقود إلا إلى تردي نوعية الإنسان، نتيجة لانحياز الكاتب إلى المصدر السقيم للمعرفة.

---

(١) (٢) (٣) ، أحمد أمين، فيض الخاطر ص٦٣

المبحث السادس

خطوط الارتقاء

١- لماذا وإلى أين؟

إذا تداعت الأكلة، وانتبه المغرضون، وألقاك التيار على شواطئ قاحلة، وساقتك الأقدار إلى عيش أيام مزدحمة بالعنت، وإلى خوض غمار ساحات مغزوة بكل ما يزدري العقول من فكر وكلام وكتابة وكتّاب، فأنت من أي جهةٍ نظرت وجدت عجباً، يرش النهارات رماداً أغبر، ويهيل على الحقيقة الناصعة سيلاً من الحلكة والتضليل، يحاول التهام الشمس في رابعة النهار.

هناك ينبت في حقول موهبتك غصن يهفو إلى النبع، وترتفع في جنباتك صيحات نهوض تبتغي الارتقاء بالرد، وتعلو وجناتك حمرة حمية بلون البدر ونعومة الندى ولفح الشمس، تطلب كلها ثأراً لوهج الحق، الذي يحرق إملاق الغزو، ويدفن رماد الحلكة بساطع الحرف ورُواء الفكر. أفلا ترى معي أيها الكاتب أن كل هذه الغايات كافية لصنع جواب لماذا الارتقاء؟ لكن سؤال إلى أين لا يدعك تستريح من الكدّ، فها هي مستحقات النجاح تتمطى في أفق عينيك، تاليةً عليك سؤال أولوية النهوض قائلة: إنك تبدأ فجراً، وتكدس أحلاماً، وتكابد حرج الوقت، فهلا علمت إلى أين أنت ماضٍ في الارتقاء؟.. إذا علمت ذلك، وأيقنت أن الخط الذي تسير فيه، يجب أن يكون صاعداً، ولكي يكون كذلك يجب أن تتجلى فيه عبقرية الإضافة الملموسة الواعية، لا المراوحة عند المشاركة العادية التقليدية في الحوار الراهن، عندئذٍ لا بد أنك سوف تردد مع (د. محمد مندور): (إن العبقرية قدرة إيجابية فعالة، وبغير الإيجابية لا تستطيع أن تعيش، وأن تثمر، وأما الهروب أو

التسكع فمن خصائص أشباه العبقرية لا العبقرية ذاتها)[1]. وإذن فإن الإضافة الإيجابية العبقرية، هي المطلوبة، وهي المفيدة في تحقيق المضي قدماً في الارتقاء، حتى يبلغ قلب التأثير وذرى الرد على إملاق الغزو، وليس التسكع على أرصفة الآخرين، أو البقاء في حومة المقلدين، أو الطرح الممل لكثرة الرد فيه.

٢- كيف تستقل خط الصعود:

ينطلق حس الكاتب المؤمن من موقف محدد تجاه كل ما حوله، وهذا الموقف مبني على وعي كامل، مرجعيته ذاكرة تحتوي الماضي والحاضر، وتتطلع إلى قادم يستلهم رؤية الكاتب الإيمانية إلى الكون والإنسان والحياة.

وبناءً على ذلك، فإن خط الصعود يتطلب من الكاتب أن يوفر لاطلاعه وثقافته ووعيه وموقفه المستلزمات التالية:

أ- **التأصيل:** ولا نعني بالتأصيل هنا أن تلتزم بمحور المقلدين في المعركة الدائرة بين الحداثيين والمتبعين الحرفيين للتراث الماضي الذين يعيدون ويكررون ما هو مكتوب ومطروح دون عناء التكلف بإضافة عبقرية بل نعني به: استيعاب الماضي كله، واستحضاره جاهزاً لفائدة الحاضر والمستقبل في التنظير الكتابي والحركة الفعلية، وذلك مع التفريق بين:

١- ما هو أصل وأساس يبني الموقف ويحدد الاتجاه، وهو بالذات الإيمان الذي يكوّن الشخصية ورؤيتها وهدفها وحدود حركتها، ويترأس عملية الوعي الجمعي والفردي بكاملها لدى الكاتب المؤمن، ويشكل القضية الأولى والأخيرة في حياته. ونصوص هذا الأصل ثابتة لا مجال للحركة داخلها إلا

---

(١) النقد والنقاد المعاصرين ص٢٣٨.

للفهم والتمثل والتنفيذ... فهي بمثابة الرأس الموجه لكل حركةٍ وسكنةٍ. واستيعاب ذلك والانطلاق منه أصلاً أصيلاً في حركة الكاتب المؤمن.

٢- وما هو من نتاج العقل البشري؛ فقهاً كان أم أدباً، علماً كان أم عمراناً، وثقافةً كانت أو فكراً وفلسفةً، وهو الأمر الثاني الذي يجب على الكاتب المؤمن أن يؤصل به مسيرته الفكرية أو الإبداعية أو الأسلوبية، من خلال عملية انتقاء وارتقاء وتوظيف إيجابي واستيعاب فعّال لهذا التراث وتأهيل له بما يجعل الحياة متواصلة متطورة، والتاريخ سلس الانتقال، منفتح الآفاق، والآخرة متصلة بحركة الإنسان فوق الأرض دون انقطاع.

والخلاصة: إن مستلزم التأصيل يفرض نفسه على الكاتب المؤمن من ناحيتين:

- **الأولى**: وهي واجبةٌ مفروضةٌ تقتضيها أوليات الإيمان أصلاً، كما توجبها معرفة أصول الإيمان وحدوده وقواعده وأساساته.
- **والثانية**: تقتضيها طبيعة التركيب الثقافي والعلمي عند الكاتب، فهي تتطلب وجود عملية تواصل مع التراث تؤسس لعملية النماء، وذلك كي يقوم البناء الثقافي والفكري للكاتب متيناً راسخاً متواصلاً في أسلوبه وشكله، لا تشوه عمارته قفزات تجعله متصدعاً مليئاً بالمفارقات غير المفسرة ولا المسوغة ولا المفهومة أصلاً، أو تنقله إلى الإمعية أو الانبهارية اللتين تذيبان الخصوصية، وتذهبان بالكاتب بعيداً عن محيطه وجمعه، ليصبح كمن يلقي خطابه في الفراغ الأصم. وكل ما يعتمد في هذا التأصيل البنائي، ويكون أعظم تأثيراً، وأجمل تكويناً: كتاب الله وحديث رسوله صلى الله عليه وسلم، فهما أول ما يتجه إليه الكاتب المؤمن لصقل قلمه، والإفصاح عن لسانه، وذلك كي يصفو عقله وفكره. ثم يأتي بعدهما في هذا الشأن ديوان الشعر العربي والإسلامي، وكتابات ونتاج فصحاء العرب وكتّابهم على مدى العصور، فضلاً عن

منتجات مفكريهم وفقهائهم وعلمائهم المعتبرين.. فأنت إن امتلكت نواصي تلك الأساسات، ودربت لسانك وقلمك، وثقفت عقلك وفكرك بها..

ضمنت لنفسك الفصاحة والحجة والبلاغة التي تحتاجها فيما أنت قادم عليه من مهنة الدعوة الرسالية بالقلم، ومكنت لقدمك في هذا المضمار، فإن أخوف ما يُخاف منه على داعية القلم واللسان ذلك القصور عن إيصال القول الذي تسببه ضحالة التأصيل الذي ذكرنا، ولتعرف قيمة هذا الأمر اقرأ معي دعاء موسى عليه السلام: (رب اشرح لي صدري، ويسر لي أمري، واحلل عقدة من لساني، يفقهوا قولي)[1] أو قوله عليه السلام مبيناً قيمة الفصاحة في التبليغ: (وأخي هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي ردءاً يصدقني)[2] وارجع إلى قول الشاعر (أحيحة بن الجُلاح):

والقـــــول ذو خطـــــل إذا ما لم يكن لـــبٌّ يعينـــه[3]

ولتتعظ في هذا بدعاء الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر) في بداية كتابه البيان والتبيين إذ يقول: (اللهم إنا نعوذ بك من فتنة القول، كما نعوذ بك من فتنة العمل، ونعوذ بك من التكلف لما لا نحسن، كما نعوذ بك من العجب بما نحسن. ونعوذ بك من السلاطة والهذر، كما نعوذ من العِيِّ والحَصَر، وقديماً ما تعوذوا بالله من شرهما، وتضرعوا إلى الله في السلامة منهما)[4].

إنه دعاء يطلب من الله أن يصحح اللسان ويؤصّله، ويصلح القلم ويكمّله، ويخلصه من النواقص والعِيّ والحَصَر، فهذه المطالب هي بعض عدة الداعية ومركبه

---

(١) طه من آية ٢٥ – ٢٨.

(٢) القصص آية ٣٤.

(٣) الجاحظ، البيان والتبيين ج١، ص٩

(٤) المصدر السابق،ج١، ص٧ والسلاطة: طول اللسان، والهذر: الكلام الكثير الرديء، والحَصَر: العِيّ في المنطق، والعِيّ: ضعف النطق.

إلى النجاح.

ب- **الحضور:** وأما الحضور فهو العنصر المهم الثاني، الذي يجب أن يوفره الكاتب لنفسه ولقلمه، كي يبقى صاعداً في سلم الارتقاء الزماني والمكاني. ونعني بالحضور:

١- رحلة في العصر، تجعل منه ابن وقته، الذي يجاري ببيانه فرسان عصره، ممتطياً هامات الكلم الحق، مستمعاً في هذا الشأن إلى كلام الجاحظ: (وإن كنت ذا بيان وأحسست من نفسك بالنفوذ في الخطابة والبلاغة، وبقوة المنة يوم الحفل، فلا تقصر في التماس أعلاها سَوْرة وأرفعها في البيان منزلةً)(١). وذلك طبعاً مع ملاحظة ما يلي:

- قالت العرب: (مقتل الرجل بين لحييه وفكيه) أي في لسانه لذا وجب حفظ اللسان والقلم بالحكمة والعقل وتجنيبهما الخطل والتزيد، والتكلم أو الكتابة التي لا تراعي الأفهام والظرف، أو المتلقين وحاجاتهم وما يدركون؛ فقد قال رسول الله ﷺ: (أيها الناس قولوا بقولكم، ولا يستفزنكم الشيطان فإنما أنا عبدالله ورسوله) وقد كان هذا القول من الرسول ﷺ رداً على وفد من العرب حاولوا مدح رسول الله ﷺ بتزيد..
- وقال أبو العتاهية:

والصمت أجمل بالفتى   من منطق في غير حينه

وكان سهل بن هارون يقول: (سياسة البلاغة أشد من البلاغة، كما أن التوقي على الدواء أشد من الدواء)(٢).

---

(١) المصدر السابق، ج١، ص١٣٩.

(٢)المصدر السابق، ج١، ص١٣٦

فلكل كتابة سياسة يجب أن تستوعب الظرف، وتغرف من معارف العصر، وتتوقى من الغياب عن واقع الحال أو الغموض المذهب للفهم، والرأي الذي يجيء في غير وقته وعلى غير ارتياح من ذهن مستمعه.

والخلاصة: إن رحلة في العصر تستوجب: الاطلاع عليه، واستيعاب أحواله ومآلاته وحراكه، والأخذ بسياسة في الكتابة: واضحة الأسلوب، سوية الاتجاه، محددة الهدف، بعيدة عن الخبط العشوائي، وكل ذلك يحتاج إلى التبين والتثبت والحذر من الزلل في الكلام والرأي، فضلاً عن الموضوعية والحلم والعلم والتعلم[1].

٢- ومعرفة بقدْر النفس وإمكانياتها: قال أفلاطون: (لكل تربةٍ غرس، ولكل بناءٍ أس) وقال الشاعر:

إذا لم تستطع شيئاً فدعه   وجاوزه إلى ما تستطيع

فاحرص على هذه المعرفة بدقةٍ، فهي منجية من الحرج والسقوط والهلاك وانظر إلى قول الشاعر بتأمل:

يموت الفتى من عثرة بلسانه   وليس يموت المرء من عثرة الرِّجل

٣- ومعالجات تطرق أبواب القلوب بقوة: فقد قيل في كلام قاله المأمون في مسألة: (وكان والله كغيث وقع على أرض عطشةٍ[2]. وقال المتنبي عن الكلام المؤثر:

إذا ما صافح الأسماع يوماً   تبسمت الضمائر والقلوب

فكيف يتحقق لك ذلك السحر من الكلام؟

---

(١) المصدر السابق، ج١، ص١٣٧.

(٢) الأصبهاني، محاضرات الأدباء ص٦٠، مصدر سابق.

- بمتابعة أحوال الناس ومعرفة قضاياهم واهتماماتهم، وتناول ذلك كله في المعالجة.
- معرفة الظرف المناسب والوعاء المناسب للكلام المعالج، بحيث يكون الكاتب كالطبيب الحاذق يعرف أين يضع دواءه وكيف يُنتفع به.
- الابتعاد عن اجترار الأفكار والحلول، والإعادة والرد، والمراوحة عند ما هو مطروح من معالجات، وإن كان بأسلوب جديد. وهذا يعني الابتكار.
- أخذ زمام المبادرة دائماً ما أمكن ذلك، فالبادئ هو صاحب السبق ومحور الحوار، وقلما تجور عليه الساحات.
- تسجيل كل ما يمر بك وكل ما تسمع وما ترى، ولا تعتمد على الذاكرة فقد تخونك وأنت بعد ذلك بالخيار، تنتقي من الموضوعات والقضايا ما يلائم اللحظة وما يغطي الفكرة.

ج- التفوق بالإضافة:

١) وأول إضافة تتفوق بها أيها الكاتب المؤمن أن تكون كلمتك هي موقفك، يبرز منهما صلاح أمرك، وعلو خلقك، وصدق حالك؛ فقديماً قال عتبة بن أبي سفيان لمؤدب ولده: (ليكن إصلاحك لولدي إصلاح نفسك، فإن عيونهم معقودة بعينيك...)[١].

٢) والثاني من أدوات التفوق بالإضافة: أن تكلم الناس بما هم في نهم إليه، وشوق إلى سماع وقراءة الرأي السديد فيه.

٣) واجعل دائماً الحق ضالتك، والسداد مطلبك، والمراء منبوذاً عندك. والصدق ديدنك، ونبذ الشتائم مذهبك، تكن من المتفوقين القريبين من القلوب والعقول.

٤) واستفد من صنع غيرك، ولا ترفع الأنف، فإن الحكمة ضالة المؤمن أنى

---

(١) محاضرات الأدباء لراغب الأصفهاني ص ٥٣.

وجدها فهو أحق الناس بها.

٥) واطرق المعالجة البكر السديدة تفز بالنتيجة، وتقر عينك بالإضافة الجديـدة، وتحرز التفوق والقبول، وتقبل عليك العيـون بالمتابعـة والاهتمـام، وتأخـذ مقامك المتقدم بين أضرابك مـن أهـل الكتابـة والآداب.. فضـلاً عـن شـدِّ أزرك بالتوفيق... والله تعالى أعلم.

المبحث السابع

حديث في الأسلوب

١- الأسلوب هو الرجل

أصبحت الآن على ثغرة، وغدوت تمثل بلاغة حديث نبيك صلى الله عليه وسلم: (فلا يؤتين الإسلام من قبلك)، فتدفعك الحمية الإيمانية إلى الالتزام بمطلبه، وعندئذ لا بد أنك تسمع خفق الحرف يناوش قلبك، وحفيف الكلمة الندي الناعم يراود شفتيك، لينطلق مخطوطاً يسطره طرف قلمك، فتمتلئ نهاراتك بحب مهنتك، وتضج المعاني في أرجائك، مبتغية الصعود إلى هامات العلا، وامتلاك أسرار البيان المصفى، وارتقاء كاهل الاستكشاف في عالم التميز وعالم نيل المراتب، اللذين يبتعدان بك عن السقوط في دنيا التقليد المزري لموهبتك، والقاعد بك عند حدود الرضى بالقليل من الاهتمام بما تقول وتكتب، والرديء المكرر من المعاني والأفكار، وهي حدود كما ترى لا تليق بمن أراد المضي خفيفاً من المؤن والأثقال ومطالب الجسد، فيكون بذلك ارتقاؤه إلى القمة هيناً لين العريكة، إذ إن التخفيف من مطالب الطين يحث صاحبه على نيل المراتب عن طريق الأسلوب المتميز؛ فقد أكد ابن الجوزي _رحمه الله_ مثل هذا القول[1] ولذلك فأنت في كل هذا مدعو إلى التيقظ لجملة قيلت قديماً: (الأسلوب هو الرجل)، ولا أظنك إلا راغباً في أن تكون الرجل المتميز، الذي يبتعث المعاني والأفكار في الألفاظ الحية المتناغمة المنسجمة مع مستويات المستقبلين، ولا تريد أن تكون الحرف البليد، الذي يساكن الوحشة والغربة، ويضرب الأمثال العاجزة عن الوصول، ويبعث الصور القابعة في أغوار

(١) انظر: ابن الجوزي، صيد الخاطر، ص ٢٣.

التقليد، لا تغادرها إلا لترتد عليك كليلة، حسيرة المردود، مبحوحة النداء، واهنة الخطى في عالم التأثير والإجابة، فهي بلا إضافة.

ولتعلم أنك داخل من بوابة عريضة لتفل جحافل الكلمات، وتمتلك أسباب الابتكار في دنياها، وتصنع من عالمها ما يجعلك تفرش الأزهار في طرقاتها، وتنثر الدر في ساحاتها، وتنوع الأساليب، فتنتقل بها من واحد إلى آخر (تطرية لنشاط السامع، وإيقاظاً للإصغاء إليك).(1) وهذا كله يتطلب منك أن تكون يقظ الحاسة، حاضر اللحظة، لا قطا مُجداً للعناوين، وصائغا مجيداً للمعاني بما يميزك، ومنوعا مرناً في الأسلوب، ونافخاً نشطاً للحياة في الحروف، متأملاً طويلاً في تراكيب الكلمات ورصفها جنباً إلى جنب، بما يخترع لك الأسلوب الفرد العالي.. لتحظى من جملة: (الأسلوب الرجل) بأعلى نتائجها، ومغدق ظلها، ويانع ثمرها، حاديك في ذلك كله الإعجاز القرآني، والبلاغة الربانية التي تمثلت في كل كلمة وحرف وجملة وتركيب، وردت بشكل معجز في النص الرباني الكريم. ألا ترى معي كيف أن الجملة القرآنية: ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِ ﴾ أدخلت – كما قال- ابن قتيبة إلى بوابة الدراسات البلاغية؟ كون (النص القرآني الكريم الأمثل لدراسة الصور الجمالية في النص العربي)(2).

٢- الكتابة فيما تحذق:

كي تكون كاتباً مفهوماً، تقدم للناس رؤيتك عن الأحداث والأفكار في هالة من الكلمات والتراكيب الجملية المقنعة الساحرة، يجب أن تتذكر أن الكاتب لا يبدع ويتفوق إلا إذا دخل من الباب الذي يعرفه حق المعرفة، ويحذق في ولوجه

---

(١) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن ، ص٢٧٥.

(٢) د.سمير أحمد معلوف، حيوية اللغة بين التحقيق والمجاز، ص٢١٨

ومعالجة إشكالاته، ويطاوعه قلمه فيه للسير فوق القراطيس بسلاسة وعذوبة، إذ إن فتح منافذ كثيرة يستجر الكاتب إلى الضعف والوهن في جميع الأشكال الكتابية التي يباشرها، بينما الاختصاص، وبذل معظم الجهد في التحسين المستمر والتطوير الدائم للموهبة فيما يحذق الكاتب، هو الذي يضعه على عتبة النجاح، ثم الإبحار في عالم الإنجاز، الذي يأتي بالقبول ووصول الصوت وسحر الكلمة والحرف، فالشاعر يجب أن يكون جهده الأكبر في تطوير حرفه الشعري، حتى يصل فيه إلى المستوى المسموع والحضور المؤثر الفاعل.. والروائي أو القاص يجب أن يكرسا جهدهما الأكبر في تطوير آلياتهما وتقنياتهما الفنية والموضوعية، وذلك كي يستطيعا فتح أبواب القلوب أمام الذي يطرحانه من فكر وعمل وتوجهات. وهذا الذي قلناه آنفاً ينسحب حكمه على كل لون من ألوان الكتابة: أدبية كانت، أم علمية، أم سياسية، أم اجتماعية، أم غير ذلك، ولكنه يخص الأدباء بشكل أكبر.

وليس معنى ذلك أن يقف الكاتب بموهبته عند نوع واحد من الكتابة لا يبرحه، بل إننا نقول: إن الكاتب الذي يجد في نفسه قدرات للكتابة في موضوع آخر أو مواضيع أخرى، فعليه أن يفتح لهذه القدرات نوافذ تتنفس منها، وتبدي ذاتها من خلال تلك النوافذ، حتى إذا حاولت هذه مزاحمة الموهبة الكبرى عنده، كبح جماحها، فقلل من قدرها، وجعل لها خلوف الوقت والإقدام، في حدود العدل الذي لا يكبت القدرات ولا يجور على الحذق... وإن مراعاة ذلك يشكل قضية هامة لدى الكاتب المتوازن، الذي يريد لكتابته ارتقاء مضمار التطور والتقدم، واحتلال المواقع المتقدمة دائماً، وقد نبه الجاحظ إلى قضية معيار للإفهام من خلال الكتابة يقوم على الحذق، (أي أن يقوم على معرفة عالية بأساليب العرب في كلامها)[(١)].

---

(١) المرجع السابق، ص٢١٨

وهذا ما يجعلنا نفهم فهماً عميقاً قسم رب العزة بالقلم والحرف: ﴿ نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ﴾[1] كما يجعلنا نفهم الأهمية الكبرى للعلم المسطور بالقلم فوق القرطاس، الذي ذكره ربنا في كتابه الكريم: ﴿ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ﴾[2].

وإن هذا الحذق بأساليب العرب في كلامها يأتي على رأسها ومقدمة أمرها ضبط القرآن للغة العرب وأدائها وتيسير ذلك لكل العصور، وهذا هو المطلوب الأول للكاتب المؤمن المقبل على خوض معركة الحرف، وقد بين الأستاذ الرافعي رحمه الله عواقب الضعف في ذلك، إذ قال: (وأنت قد ترى الضعفاء الذين لا يُحْكِمون منطقهم وما يصنعون بالأساليب المدمَجة والفِقَر المتوثقة إذا هم تعاطوها فنطقوا بها، حتى ليصير معهم أجود الكلام في جزالته وقوة أسره وصلابة معجمه إلى الفسولة والضعف، وإلى البرد والغثاثة، كأنما يموت في ألسنتهم موتاً لا رحمة فيه)[3].

٣- وصايا عامة:

أ- اتخذ من الكتابة رسالة حياتية ومهمة إيمانية، تبتغيان تعريف الناس بالطريق الذي يسعدهم، ويخلصهم من الجري خلف الوهم الذي يسمونه الحداثة، كما يفهمها مقلدو الغرب، وهو في الحقيقة الفوضى المؤدية إلى الضياع.

ب- التزام حدود الاعتدال والصدق والموضوعية فيما تكتب أو تقول، وابتعد عن التهويل والكلام الذي لم تتيقن من صحته، حتى لو كان الكلام عن عدوك، وذلك امتثالاً لقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ ﴾[4].

---

(١) القلم (١).

(٢) العلق (٤).

(٣) مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص٨١

(٤) سورة: المائدة (٨).

ج- ابتعد عن أساليب الشتم والإقذاع في الكلام، واجعل كلماتك بمستوى هدفك ورسالتك ومهمتك التي اخترتها لنفسك، واحرص على أن تكون رفيقاً حليماً في غير ضعف، وذلك امتثالاً لتوجيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه)[1] . وقوله عليه الصلاة والسلام: (ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش البذيء)[2] . وتوجيهه صلى الله عليه وسلم: (من لا يرحم لا يُرحم)[3] .

د- اختر من المواضيع والمعالجات ما يكون قريباً من فهم المتلقين، وما يهمهم، ويحاول تقديم الحلول لهذا الذي يهمهم، وذلك مصداقاً لقول الله تعالى: ﴿ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴾[4] وقوله جل وعلا: ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾[5].

هـ- اجعل وقت الكتابة عند اعتدال مزاجك، وفي أحسن ظروفك، وضمن الساعات التي تتفتح فيها قريحتك، وتتكاثر فيها التعابير والأفكار تكاثراً يجعلها على أطراف قلمك، وحينئذٍ فإنك لا تجد لك مخرجاً إلا أن تتناوله وتسجل خواطرك، فإن ذلك أيسر لك وأسلس لعملك وأسلوبك، وأقوم للسانك وخطك، وأبلغ في التعبير والتأثير، إذ الكلام حينئذٍ يكون عفواً لا تكلف فيه، ودفقاً تتعاون على ابتعاثه العواطف والأحاسيس والعقل والخيال، فيخرج نَوْراً متكامل الخلقة والجمال.

و- ولا تنس أن تمهر عملك بالتوثيق وذلك بالإكثار من المؤيدات، ولكن بدون إسراف، وتزيين الكلام بالأمثلة والأمثال المتداولة ولكن بدون إفراط أو تطويل.. فإن التوثيق يدعم رأيك ويشد عضدك، وإن ضرب الأمثلة والأمثال يفسر قولك ويزيد من وضوحه وبيانه، ويقربه من الناس، ويحببه

---

(١) رواه مسلم في صحيحه.

(٢) رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

(٣) متفق عليه.

(٤) النساء (٦٣).

(٥) البقرة (٨٣).

إليهم. وذلك كما تعرف أسلوب من أساليب القرآن الكريم في البيان والإظهار والتأثير فاحرص عليه ولا تفوته.. وتأمل جمال وقرب المعنى والمبنى من الإفهام في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾.

٤- في مفردات الأسلوب:

قال ابن أبي داود: (القلم سفير العقل، ورسول الفكر، وترجمان الذهن)[1].

فلما كانت الكتابة سفيراً لعقل الكاتب لدى المتلقين ورسولاً لفكره، وكانت رسالة حياتية ومهمة إيمانية لدى الكاتب المؤمن، فقد وجب الكثير من العناية بالأسلوب، والدراية النظرية والعملية بتنوعاته وفتوحاته التي تيسر الطريق إلى قلوب المتلقين وعقولهم وعواطفهم وأفهامهم.. وفيما يلي بعض الأمور التي تيسر الأسلوب وتعلي مقامه.

أ- تخير اللفظة الملائمة للمعنى المراد وللتركيب الجملي الذي تريد تسطيره، بحيث تبني بناء منسجماً في الشكل والجوهر والموسيقى، وانسيابية المجموع: كان ابن المقفع كثيراً ما يقف إذا كتب، فقيل له في ذلك، فقال (إن الكلام يزدحم في صدري فأقف لتخيره)[2].

ب- ومن حسن الأسلوب؛ أن تتخير اللفظة مما يتعارفه الناس في استعمالهم، ويتداولونه في زمانهم، فلا هي بالوحشية الغريبة المحتاجة للعودة إلى المعاجم،

(١) الأصبهاني، محاضرات الأدباء والبلغاء، ج١، ص١١٣.

(٢) ابن قتيبة، أدب الكاتب، ص١٠٢.

ولا هي بالعامية المغرقة المفضية إلى اللحن[1].

ج- البعد عن التكلف في الأسلوب، والإغراق في البحث عن الجماليات البيانية على حساب المعاني والمباني فقد قال شيخ البلغاء الجرجاني: (بحيث إنه من فرط الشغف بأمور ترجع إلى ماله اسم في البديع إلى أن ينسى أنه يتكلم ليفهم، ويقول ليبين)[2].

د- توصل إلى المعنى بأقصر الطرق، فلا تكثر من الثرثرة والحشو غير المفيد وذلك من غير إيجاز مخلٍ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن أبغضكم إليّ الثرثارون المتفيهقون المتشدقون).

هـ- احرص على مراعاة أحوال الناس الذين تكتب لهم، وتفقد كلامك كي يكون ملائماً للمقام والمناسبة، وهذا هو الأسلوب البلاغي القرآني، كما هو أسلوب البلاغ الرسالي الذي جاء في كلام المصطفى صلى الله عليه وسلم، وهو ما قاله عنه ابن قتيبة: (من سمع كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم لأيقن أن للعرب الحكمة وفصل الخطاب)[3].

وقد قيل لبعضهم: كيف ترى إبراهيم الصولي فقال:

يولد اللؤلؤ المنثور منطقه وينظم الدر بالأقلام[4]

و- انتق السهل من التراكيب المنسجم مع المعنى دون ركاكة أو نزول في الأسلوب، فقد قال ابن قتيبة: (نستحب له – إن استطاع- أن يعدل بكلامه

---

(١) عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص٤.

(٢) المصدر السابق، ص٩.

(٣) ابن قتيبة، أدب الكاتب، ص٩.

(٤) الأصبهاني، محاضرات الأدباء، ج١، ص١٠١.

عن الجهة التي تلزمه مستثقل الإعراب)[1].

ز- اهتم بالتنقيح ومعاودة القراءة وذلك ليستقيم لك الكلام، وتنسجم الكلمات والألفاظ بعضها مع البعض الآخر، وبالتالي مع المعنى المراد، وذلك ليصل ذلك المعنى إلى الناس بأقصر الطرق وأفخم تعبير.

ومن مقتضيات ذلك، أن تبحث عن توكيد المعنى بالمترادفات دون تطويل أو حشو، واستعمل الجمل القصيرة فهي أدعى للفهم والانسجام ونقل المعنى بسهولة. كما أنه من مقتضيات ذلك العناية بالصنعة دون تكلف، وأن تسلم العبارة للعبارة بسلاسة ودون استثقال للانتقال من قبل القارئ.

ح- ابتعد عن تجميد المعنى في الكلمة، وذلك بانتقاء الألفاظ المرنة، ووضعها في العبارة الرفيفة، حمالة الوجوه، مجنحة المعاني مع مراعاة جنس النص ومناسبته ومكانه وجمهوره.

وبعد: فقد كنت متواطئاً معك أيها الكاتب الهمام، حين اكتفيت بهذا المختصر من القول عن الأسلوب، حتى لكأنني حسبت أنك أعلم مني في البقية الباقية من النص المتعلق بذلك ومغزاه العميق، فأنا لا ألام على ذلك الظن فلا أخالك إلا أنك قد حسبت لكل شيء حسابه فسيماؤك يقول: إنك لا تخشى قطعان الضلال وأنت تختزن كل ذلك الرصيد الذي جئنا على ذكره مذ بدأنا وحتى اللحظة،

فها أنت موافقي أن المناوئين لإسلامنا من كتبة السلاطين أو كتبة الهوى لا يملكون في مواجهتك سوى التبشير المتهافت بأنهم (الأنبياء الكذبة) لهذا العصر..!.

فاستل قلمك بقوة، وامض إلى حيث انتدبك دينك، ولا تخش انتفاش المدعين.

(١) ابن قتيبة، أدب الكاتب لابن قتيبة، ص١٧.

المبحث الثامن

النورُ الآن في قَلمِك ومِلْكُ أناملِك

١- مقدمة:

ها أنت تقف عند بوابات الفجر، مفتونا بأحلام أوقدت العزم، واستلت النور من قلب العتمة، لتضعه بين أناملك والقلم.

ها أنت تطرد الآهات، وتطلق للقلم العنان، بعد إذ جاءتك المواهب مذعنة، والتجارب والخبرات دانية، والعذب من صولات الذود عن الحياض حاضرة، يؤزها الشوق إلى النور طارد العتمة، والروح قد أثقلها طول البقاء عند أقدام المراوغة، فانطلقت اليوم، تعدو مع الحنين، تلفظ التقلب في أحضان التردد، وتطرد النأي عن الإقدام.

إنه نور البيان، يطوق عنقك بواجب الصعود بالإنسان إلى شمس الأنبياء، حيث ضياء الهدى في قبضته روح النجاة، فلا تخش في هذا السبيل شيئاً، وكن (رابط الجأش على الأغباش)، أي جسوراً في المواقف، مقداماً في اتخاذ القرار في اللحظة المناسبة، لا تهاب المواجهة في الحق وللحق.. فأنت بالكلام الذي تقول أو تخط تتعدى نفسك، لتفتق عن أزاهير العقل كمائمه كما قال الجرجاني في أسرار البلاغة[1].

وأتركك هنا مع بليغ العربية الجاحظ، يدعو لك أيها الكاتب الداعية المؤمن بالتوفيق والإحسان دعاء عظيما وافياً بما تحتاجه، من أجل انبثاق النور في المعنى الذي تريد أن توصله، واللفظ الحامل الجزل.. فقل مع الجاحظ: آمين، لتمهر بها

(١) انظر: عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص٢

دعاءه البلاغي الآتي:

(جنبك الله الشبهة، وعصمك من الحيرة، وجعل بينك وبين المعرفة سببا، وبين الصدق نسبا، وحبب إليك التثبت، وزين في عينك الإنصاف، وأذاقك حلاوة التقوى، وأشعر قلبك عز الحق، وأودع صدرك برد اليقين، وطرد عنك ذل اليأس، وعرفك ما في الباطل من الذلة، وما في الجهل من القلة)[1].

٢- علامات هاديات على طريق الوصول:

أ- قال ابن المقفع في أدبه الصغير: (فلينظر امرؤ أين يضع نفسه) [2]

نعم فلينظر امرؤ مؤمن أين يضع قدمه في لحظات يسودها الظلام والضلال، وليعرف أن ما يعينه على ذلك معرفة المهمة الوحيدة التي خلق من أجلها: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[3] فإذا هو عرف حق المعرفة أنه موجود من أجل العبادة، وضع نفسه وقلمه في هذا السبيل، بأبعاده التي تشمل كل أعمال الإنسان في يومه وليلته، التي من أهمها دلالة الناس على الخير من خلال مهنته كاتباً ومبلغاً عن الله ورسوله: (من دل على خير فله مثل أجر فاعله) (ومن دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً). فأنت يا صاح مبلغ بقلمك وحالك، داع إلى هدى، ودال على خير..

فهذا هو مكانك؛ تسكن في ظلال الكلمة الرفيفة، حاملة الهم الإيماني الإنقاذي، تريد له أن يلامس قلب كل إنسان بحنو يملأ الكيان، ويفيض من الفطرة

---

(١) المصدر نفسه ص٩-١٠.

(٢) ابن المقفع ،الأدب الصغير، ص١٦.

(٣) الحجرات (٥٦).

الخافقة في أصل الروح والخلق. فهل عرفت أين موضعك من هذا العالم المحيط بك، المائج بكل عجائب النفوس وغرائب الدعوات وضلال الفكر واعوجاج المناهج وادعاء الرجال ودعاة على أبواب النار، حيث تُفتح لهم الأبواب والأمكنة، وتسهل لهم سبل ارتقاء منابر الخطاب، بينما توصد تلك الأبواب، وتصعب السبل على أصحاب الكلمة المرجوة لخير الأمة وفلاحها وصلاحها وتقدمها؟ فإذا كنت الآن، أو من قبل، قد عرفت ذلك فالزم المكان الذي اخترته لنفسك.

وابعث فيه الحياة والأمل، فلا بد أنك حينئذ ستجد الاستجابة المرجوة لكلمتك.

ب- قال الأحنف بن قيس: (من لم يكن له علم ولا أدب، لم يكن له حسب ولا نسب)[1]

وقال صالح بن عبدالقدوس:

وجامع العلم مغبوط به أبدا فلا يحاذر منه الفوت والطلبا[3]

فأنت أيها الكاتب المؤمن لن تنال المنى والمكان الذي اخترت، وإحسان الصنعة التي امتهنت إلا بالعلم.. فلا تنفك عن نشدانه ما دمت حياً، ولتعلم أنه مذخورٌ في بطون الكتب وفي خبرات الحياة.. وأول الكتب ورأسها وعظيمها القرآن وثانيها السنة المشرفة، ثم الأمثل فالأمثل مما له صلة بهذين الأصلين، ومما له علاقة بالحياة ونفوس البشر ودنياهم وحركات المجتمعات وإدارتها وتحولاتها، وقيام الدول وزوالها، وارتقاء الحضارات وانهيارها، وفخر الآداب وعز علومها وتطورها.

فاضبط رغائبك وطموحاتك بكل ذلك الذي ذكرناه آنفاً، مصطحباً إتقان

---

(١) (٣) الأصبهاني، محاضرات الأدباء، ج١، ص٣١-٣٢.

الصنعة على ما بيناه سابقاً، تكن مستحقاً للمقام الأعلى، والذكر الذائع المجلى.

ج- قال الله جل وعلا في كتابه العزيز ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴿١٨﴾.. ﴾ الأنبياء، وقال مصطفى صادق الرافعي – رحمه الله – في التعليق على هذا البيان القرآني كلمات مُجيدات نقتطف منها ما يأتي: (ومعان بينا هي عذوبة ترويك من ماء البيان، ورقة تستروح منها نسيم الجنان، ونور تبصر به في مرآة الإيمان وجه الأمان.. وبينا هي ترف بندى الحياة على زهر الضمير، وتخلق في أوراقها من معاني العبرة معنى العبير، وتهب عليها بأنفاس الرحمة الرحمة فتنم بسر هذا العالم الصغير..)[1]. لاحظ أن هذا يعني لك الشيء الكثير؛ الذي أوله ورأسه الأمل والثقة بالتفوق على الباطل بالحق الذي تحمله، فأنت تقذف في وجه الباطل بالكثير. فهذا الوثوق، يتنزل على نفس المبلغ مثل ندى الصباح على الورقة العطشى، فبينما تنفح روحك توجساً وريبةً في الأسباب، يحملك الوثوق على اجتياز مفازات كؤود من التردد والخوف ورياح الخذلان، فلتمعن التأمل في قوله تعالى: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ.. ﴾ ولتكرر قراءة وصف الرافعي لهذا البيان العظيم، ولسوف تجد العافية، تجوب كل أركان روحك وجسدك، ولسوف تجد قلبك طارداً القنوط بقوة، ومنطلقاً بشفافية وضيئة في سبل التحدي للصعاب. ومتدفقاً بأنهار الأمل مثل ينبوع ثرٍ نقي متجدد الدفق والصدح والعطاء...

٣- إبداع واقعي..

وأعني بالإبداع الواقعي ذلك اللون من الكتابة الذي يراعي العصر والمحيط المتلقي، بعيداً عن تتبع الغرائب والمفاجآت الملأى بوحشي الكلام وغريبه، المنتهية

---

(١) مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن، ص٣٠

إلى إيراد الأحداث بشكل بعيد عن أذهان الناس وإمكانية اقتناعهم. وقد سبق لابن المقفع أن نصح أحد الكتاب بقوله: (إياك والتتبع لوحشي الكلام طمعاً في نيل البلاغة، فإن ذلك العِيّ الأكبر). فأرز إلى الواقعية البليغة التي تحبب المطالعة إلى الناس، وتجعلهم قادرين على قطف المعاني واستحسانها.. واعلم أن لكل عصرٍ أسلوباً وطريقاً وشروطاً للبلاغة، يأنس إليها الناس، ويتحرون فيها ضالتهم، فأنت إن خرجت من ذلك كله، وتتبعت أساليب عصر آخر أو أرض أخرى أو مجتمعات أخرى، من أجل أن يقال عنك أنك أبدعت تطويراً، تكون بذلك قد طردت نفسك من ساح القبول والإقبال على علمك، ومن حر رأي تريد أن توصله إلى الناس.

ولا يغرنك هذا الضجيج أو الفحيح اللذان يحاولان أن يسوِّقا غثاءً من التطوير، باسم النهضة أو التنوير، وهما لا يعدوان عندهم أن يصنعا لافتات مضللة زائفة تقول فيما تقول:

الإسلام السياسي الذي يحمل دعاوى سياسية ألبست ثوب الدين وليست ديناً ألبس ثوب السياسة[1].

- استغلال الدين من أجل الوصول إلى الحكم..!!
- كل ما هو غربي تنوير.. وكل ما هو إسلامي ظلامية..!!
- اللغة العربية يجب أن تتفجر، وتحل محلها لغة مقطوعة الاتصال بالتاريخ..!!

إلى آخر ما هنالك من اللافتات، التي أخذت على عاتقها مهمة تدمير الأمة وثقافتها ومستقبلها، وقد وجدت هذا الادعاءات الضالة مكاناً، ووجد أصحابها لهم مكانة في عقود القرن الماضي الأخيرة.. فكان ضجيجها وقيادتها وعلوها هو الذي أوصل أمتنا إلى مجموعة الهزائم التي ابتدأت منذ أواخر الحرب العالمية الأولى وحتى اللحظة.

(١) فرج فودة.. اللواء الأردنية ٤/ ١٢/ ١٩٩١ من كتابه (قبل السقوط).

ويمكن هنا أن نعدد من هذه الهزائم أمثلة منها:

- سقوط الأمة في فخ التعاون (ضد دولتهم الإسلامية الجامعة) مع الأجنبي الذي اقتسم الغنيمة بعد الحرب العالمية الأولى، وبعد سقوط الوحدة التي كانت تجمع أقطار وشعوب العرب تحت الراية العثمانية، وهكذا تشرذمت الأمة، وانحدرت في مهاوي سايكس – بيكو وأتباعه وما جرّوه من خذلان صنعناه بأيدينا وبواسطة دعاة (التنوير) منا..

- ثم جاءت هزيمة عام ١٩٤٨ وضياع فلسطين، وتلتها هزيمة عام ١٩٥٦ و ١٩٦٧.. وهزائم الحرب اللبنانية سنة ١٩٧٥ وما بعدها، التي غدا الأخ فيها يقتل أخاه. وعلى منوالها تمت هزائم حربين خليجيتين، كان المسلم فيها مقابل المسلم والعربي.. وضحك منا الأعداء كثيراً.. فقد كفيناهم قتالنا إذ قام (التنويريون النهضويون) بمهمة إسقاط الأمة في الخندق العميق الذي أتاح لكل من هب ودب أن يناوش رؤوسها، ويقتات على حساب ثرواتها، يلاحق دعاة الإسلام والإصلاح والتنوير الحقيقي فيها، تحت غطاء دعاوى النهضة والتطوير، ليرتفع صوت ومكانة من يدْعون إلى تفجير اللغة[1]؛ تلك الدعوة التي تهدف أول ما تهدف إلى قطع الصلة بكتاب الأمة الخالد (القرآن)، وقطع الصلة بتاريخها وتراثها، إلى أن وصل الأمر إلى الدعوة لاستعمال العامية واستعمال الحرف اللاتيني بدل الحرف العربي[2]، وإلى اعتبار مصر والمصريين أوروبيين وليسوا عرباً مسلمين[3].

٤- وبعد: فإنك بسلاح الكلمة مجاهد، يتجلى جهادك بالموهبة الأصلية حاضرةً طوع بنانك وقلمك، شاهرةً سيف الكلمة الطيبة، ساعيةً لرفع عبء حياة

---

(١) أدونيس.

(٢) سعيد عقل.

(٣) طه حسين.

مهيضة عن كواهل المؤمنين، مارسها عليهم جناة الكلمة الخبيثة وما يزالون؛ فقد ظلّ الثغر خاوياً أو يكاد من الحراس الخلص الأصلاء، الذين يدفعون بكل جهدهم في المعركة، ويفرغون الوسع فيها، مزودين بالمعرفة الشاسعة الأبعاد، والفكر النير السديد، والعزيمة الناضجة الحديدية، حاديهم فيها دائماً وأبداً بعض النصائح التي يجب أن ترافقك، ما دام نَفَسٌ يتردد بين جنبيك:

أ- أن تتأكد أبداً أنك فيما تكتب وما تتكلم لا تخرج عن حدود الهوية والخصوصية، اللتين تميزان الأمة وتعطيانها معناها ومكانها ودورها في الوجود.

ب- أن تكون دائماً يقظاً وحذراً من الغزو الثقافي والفكري والحضاري للشخصية المؤمنة، فإن ذلك يحدث في عصرنا بصور شتى، ملتبسة متخفية في أردية باهرة، تضيع وعي الجماهير، وتستلب في كثير من الأحايين نخبهم ومثقفيهم قبل أن ينتبهوا.

ج- ولتتذكر أبداً.. أنه كلما كان التصدي للغزو متمسكاً بدين الأمة الذي هو رمز هويتها وقوام وجودها، وعز مكانتها.. فإن الهجمة تكون أشرس ووسائلها تكون أعقد وأبعد وأقوى.. ومهمتك حينئذ تكون أصعب، وعزائمك يجب أن تكون أمتن وأعز.

د- ولتكن دائماً ضمن قاعدة الانطلاق، المتمثلة بالاعتزاز بدينك وعقيدتك وخصوصية أمتك، مليئاً بكثير من مخزون الأمل والتفاؤل والثقة بوعد الله بالنصر والتمكين لهذا الدين في نهاية المآل...

هـ- إنها أمانة، وإنك مؤتمن، وأنت إن لم تؤدها حقها بالكامل، فاعلم أنك على حافة زيغ، ينحرف بك إلى الخزي والندامة.. موسومين بالهزيمة، عاريين من

كل حجة.

و- فارتشف أخي الكريم من رأس النبع، وأزح من طريقك كـل الغثـاء والزبـد، وأطفئ إلى الأبـد جمـر الالتصـاق بـالتراب والطـين بعزمـة عمريـة أضـاءت القرون، وابعث بهما بقوة مع تباريح اليأس هدية إلى الآخر المصـارع، راجيـاً أن يعلي الله بكلمتك كل أمثلة الخير وأشرعة النصر..

الباب الثاني

تطبيقات

١ -حرية الإبداع

٢ -الشعر وتيار الوعي

٣ -الحداثة والأدب

٤ -دراسة عن رواية (عينان مطفأتان وقلب بصير) للدكتور عبدالله الطنطاوي القاص والكاتب والناقد السوري.

٥ -قراءة في المجموعة القصصية (إنهن النساء) للأستاذة (هيام ضمرة) الأديبة الأردنية.

٦ -دراسة في رواية (مارد في صدري) للأستاذة(نعماء المجذوب) الأديبة السورية.

٧ -دراسة في المجموعة القصصية (مرآة الضمير) لمحمود مفلح، القاص والشاعر الفلسطيني.

- ١-

حرية الإبداع

ظاهرتـان بارزتـان لا تخطئهمـا العـين الناقـدة الحصـيفة، وقـد تبـدت هاتـان الظاهرتان من خـلال المعركـة الـدائرة منـذ فـترة ليسـت بالقصـيرة حـول الإبـداع وحريته. أولى هاتين الظاهرتين:

- الحملة العارمة غير المسبوقة للغمز من قيم الأمة وثوابتها ومقدساتها وذلك بالتعرض للقرآن والرسول والذات الإلهية.. وتسويد الصحائف بالنصوص الركيكة المتهافتة، من التي يسمونها (روايات وقصة) ومن نصوص الشعر النثـري المتداعيـة، الملأى بالألفاظ والمعاني البذيئة الساقطة، الداعية للرذيلة والجنس المكشوف، بشكل فاقد لكل حياء أو اعتبار لمشاعر الناس وأذواقهم.

أما الظاهرة الثانية فهي: الاحتلال الفاجع لمؤسسـات الثقافـة الرسميـة وغـير الرسمية في أوطاننا، من قبل فلول أصحاب الفكر الشـيوعي الإلحـادي واليسـاري الهالك، والعلمانيين الذين اتخذوا الطبعة العربية من العلمانية مئـزراً وغطـاءً، تلـك الطبعة المختلفة عن الطبعة الغربية الأصلية للعلمانية، وذلك لأنها موسومة بـالقمع الفكري، وأحادية النظرة إلى الحرية، إذ أن أصحاب هذه الطبعة لا يعرفون للحريـة وجهاً إلا إذا كانت مرآته لا تعكس إلا ما يريدون من رأي وطرح فج لأراء: إما أن تكون ميتة، أو أنها مصادمة لكـل مقومـات مجتمعاتنـا مـن مقدسـات أو مكونـات خلقية ونفسية وعرفيـة، والعجيـب العجيـب أن هـؤلاء يضـعون قمعهـم الفكـري وأحادية نظرتهم للحرية تحت عنوان طويل عريض معجـب هـو (حريـة الإبـداع)، ويصمون كل من يتصدى لهم ولنتاج دواخلهم المريضة، المسكونة بكرهٍ جاهل لكل ما هو إسلامي، ولكل ما يمت لعناصر قوة هذه الأمة بصلة. أقول يصمون هؤلاء –

بإسقاط نفسي متهافت – بالظلامية، والإرهاب الفكري، وقمع الرأي، (والتزمت لدرجة الجنون) كما قال صاحب الوليمة المسمومة في مقابلة مع الحياة اللندنية. ولكي نقف على حقيقة الشعار الذي يرفعون، ومصداقية هؤلاء في الحرية والتضليل الفكري الذي ينهجون، ندلي بما يلي:

أولاً: ما هو الإبداع؟

جاء في المعجم الوسيط: بَدَعَهُ بَدْعَاً أنشأه على غير مثال سابق فهو بديع للفاعل والمفعول.. والإبداع عند الفلاسفة إيجاد الشيء من العدم فهو أخص من الخلق. وأبدع الشيء: أي جاء به على غير مثال سابق. والبِدْعُ: الأمر الذي يفعل أولاً.. واختلف العلماء في العصر الحاضر كثيراً في تعريف الإبداع لكنهم قالوا: يكون الإبداع[1] عمل جديد ليس له سابق، وأنه مفيد أو مقبول لدى الجماعة أو أنه قابل للتطبيق والاستعمال. وقد قال ريتشارد دي ميل:

(إن الابتكار يعني أن بعض الشيء الجديد قد أنتج وأن هذا الشيء ذو قيمة)[2].

ويجمل الدكتور الحمادي مفهوم الإبداع بقوله: (يمكن أن نعرف الإبداع والتفكير الابتكاري بالتعريف التالي: هو مزيج من الخيال والتفكير العلمي المرن لتطوير فكرة قديمة أو لايجاد فكرة جديدة مهما كانت الفكرة صغيرة ينتج عنها إنتاج متميز غير مألوف يمكن تطبيقه واستعماله...)[3].

من هذه التعاريف السابقة نستنتج أن شروطاً يجب أن تتوفر في المُبدَع منها:

١- أن يكون المبدَع غير تقليدي (لا سابق له).

(١) دكتور علي الحمادي، شرارة الإبداع، ص٢٧.

(٢) المرجع السابق، شرارة الإبداع، ص٣١.

(٣) المرجع السابق، شرارة الإبداع، ص٣٢.

٢- أن يكون مفيداً.

٣- أن يكون قابلاً للحياة والأخذ به (التطبيق والاستعمال المادي أو الفكري).

٤- أن يكون مقبولاً ومفهوماً لدى الجمع المطروح عليه.

٥- أن يكون ذا قيمة للناس في حياتهم أو آخرتهم.

ثانياً: أين يقف مدعو الإبداع؟

مما أوردناه سابقاً نستطيع القول: إن الإبداع الحقيقي السديد والرشيد لا يمكن أن يدعي الحرية المطلقة في الطرح والإنتاج، وإلا لخرج من تحت سقف تعريف الإبداع الذي أورده العلماء، إلى الفوضى والتمرد، والبون شاسع بين التمرد والفوضى وبين الإبداع.

صحيح أن التعريفات قالت بالمُبدَع الذي لا سابق له، وبالابتكار غير المألوف الخارج على التقليد، إلا أنهم أيضاً قالوا: بأن المُبدَع مفيد، وقابل للتناول، وذو قيمة مقبولة لدى الجمع.

إننا مع الإبداع وحريته في الأدب والعلم والفلسفة، ومع أن يجول المبدع بأفكاره في الكون، وفي الإنسان، وفي الحياة، ويجمع العلاقات والوظائف، ويؤلف بينها، ويخرج بالصور الجديدة المبدعة المبتكرة المطورة للمألوف في صور غير مسبوقة.. ولكن..! ولكن شرط أن يكون إبداعه ليس من قبيل الاعتداء على عقائد الناس وأخلاقهم، في الوقت الذي لا يترتب على ذلك الكلام عمل مفيد للناس، لأن كل جدل أو قول أو تفكير أو فكرة لا يترتب عليها عمل هي عبث محض، فكيف إذا كانت اعتداءً ونكراناً واستهزاءً بمقدسات الناس من خلال نتاج متهافت لا قيمة له، ولا يقدم إضافات جديدة نافعة متقدمة، بل هو يمتح من دونية عبثٍ سابقٍ، وُجد في مجتمعاتنا على مرّ التاريخ، لكنه أهمل وعزل ووضع في مكانه من

مزبلة الإبداع. ولا بد أن هذا الذي أوردناه يفضي بنا إلى تساؤلات منها: ما الـذي حوته رواية (وليمة لأعشاب البحر) مـن مراعـاة لكـل مـا ذكرنـا مـن مواصـفات الإبداع؟ هل الاعتداء على الذات الإلهية، ومعاملة كتـاب الأمـة الخالـد (القـرآن) بالشتم والاستخفاف، واسـتعراض كـل الألفـاظ الجنسـية وعملياتهـا المكشـوفة في مختلف واجهات الرواية.. إبداع جديد على غير مثال؟ أم أنه اقتدى بأمثلـة عديـدة ممن ساروا على هذا النهج، وهم قلة نادرة من الكاتبين الذي لفظـتهم مجتمعـاتهم، فلم تهتم بكتاباتهم أو ما طرحوه فيها، فكانوا سبة على أنفسهم، ونقاطاً سـوداء في تاريخ الأمة، لا يذكرون حتى اليوم إلا باللعن والتبرئ مـن فعـالهم وإبـداعهم، إن جاز لنا تسمية ذلك بالإبداع. إن هبة كثير مـن الـذين يـدعون الثقافـة والتنـوير في سورية ومصر والأردن ولبنان وإخراج البيانـات للـدفاع عـن هـذه الروايـة، ليـدل دلالة واضحة على أن هؤلاء المدعين لا يستحقون هـذا الاسـم واللقـب، بـل إننـا نجزم أنهم اتخذوا من استعمال الأوروبيين لمصطلح التنـوير مثـالاً في الهجـوم علـى الدين وثوابته، مع أن الظروف التي دعت الأوروبيين إلى اتخـاذ الـنهج مختلفـةً تمامـاً عن ظروفنا.

ألم يسأل هؤلاء أنفسهم قبل أن يبادروا على طريقة الجاهلية (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً): ما الذي يفيد الأمة أن تقرأ تجربـة مجموعـة شـيوعية ماركسـية، مضـى عليها أربعة عقود من الزمان، ظلمهم فيها الحكام، وكانوا هم لأنفسهم أظلم عندما تبنوا أفكاراً غريبة عن مجتمعاتهم، ظلت معزولة منبوذة مختبئة كـالجرذان في المجـاري والنفايات، وكان مصـيرها كمصـير أمثالهـا في التـاريخ مـن قبـل: ابـن الراونـدي، والجهمي، وابن مقبل، والقرامطة، والخطابية، وغيرهـم من الملحدين الخارجين عـن مجموع الصف العام، مدعي الإبداع والتطوير كما يزعم هؤلاء لأنفسهم اليوم؟..

إن وقوف كل هذا الكم من مدعي الثقافة مع باطل الوليمة (الذي لا يحتاج إلى برهان أو تأويل أو بحث للتعرف عليه) في مقابل الرأي العام العربي والإسلامي بأجمعه، ليطرح سؤالاً ملحاً يقول: من هو المثقف في بلادنا إذن؟ أهو هذا المستخذي المستجدي للحكام، المتنمر المتعملق تجاه الجماهير وعقائدها ومقدساتها؟ أم هو هذا الذي اصطف إلى جانب حملة قمع الفكر والمفكرين والمثقفين الإسلاميين عاداً هذا الاصطفاف حركة تنوير وحرية..؟!

إن من الحقائق التي يجب أن تعرف أن مؤلف رواية (وليمة) ماركسي منتم إلى إثنية عقدية لا تمت إلى المجتمع المحيط بصلة.. فلا عجب أن تخرج على لسانه ويثبت قلمه جملاً مبتذلة كثيرة وضعها على لسان شخوصه، وهي جمل مستعملة كثيراً على ألسنة أهل تلك المنطقة التي ينتمي إليها المؤلف في سورية.. ولقد قوبلت روايته منذ البداية (كما قال هو في مقابلة أجرتها معه إحدى الصحف) بالاستنكار وعدم القبول، وحتى الدار اللبنانية التي نشرتها في البداية (بعد رفضها من قبل العديد من الناشرين) لم تقبل وضع اسمها عليها خوفاً من مصير كالمصير التي آلت إليه حالياً.. ولقد كان توزيعها محدوداً وباليد كما اعترف هو.. وإذا كان اللوم مؤكداً وشديداً على نشرها وبيعها شبه المجاني، فإنه من الأوجب أن يوجه اللوم أيضاً وبقوة إلى من استحل نشرها على حساب الإنسان المسحوق في مصر، إذ كان المصري المؤمن إيماناً فذاً بدينه وإسلامه وعقيدته، يدفع تكاليف نشر الاعتداء على دينه وعقيدته. فكم من المفارقات العجيبة في هذا التصرف! والسؤال الذي يؤكد نفسه هنا: لماذا هذا الكم الهزيل من اليسار تُجمع فلولهم، ويُفتح لهم ملاذ ليس آمناً وحسب، بل إنه يشكل مسجد ضرار، تنطلق اعتداءاته من بوابات مؤسسات الثقافة في بلاد المسلمين، وينضم إليهم فيها أحلاس التقليد الأعمى من المتغربين، الذين يحاولون إضفاء صفة التنوير على أنفسهم، بينما هم في حقيقة الأمر ظلاميون شديدو

الالتصاق بظلامية تقليد ببغاوي لكل ما هو آت من الغرب، معتلين صهوة انفتاح استباحي على كل ما هو ضار ومضر ومتداع ومتهالك من فكر الغرب، ذلك الذي بدأت مجتمعات الغرب نفسها تكتشف تداعيه وتهافته وسوقه لها في دروب التيه والانحلال، ومن ثم السير نحو حافة الهاوية.

ثالثاً: سؤالان: إننا لا نستطيع أن نغادر القول في هذا الموضوع قبل أن نوضح نقتطين من خلال سؤالين وجوابهما..

- الأول: هل حقاً إن المحتجين على بعض الكتابات الخارجة على مشاعر المجتمع وثوابت الدين، ينشئون شهرة مفيدة لمثل هؤلاء الكتاب؟..

والجواب على ذلك: إن هذا القول ليس دقيقاً على أطلاقه؛ صحيح أن الكاتب يأخذ شهرة، فيعرف اسمه من خلال الضجة الإعلامية المثارة.. ولكنها الشهرة النكدة، التي عرف أمثال هؤلاء بواسطتها واشتهروا في التاريخ، ولكنها شهرة عكسية، تؤدي إلى نبذهم، والحذر مما يكتبون، وما يطرحون، وأكبر مثال على ذلك (سلمان رشدي)؛ إذ أن الشهرة التي حازها من خلال روايته (آيات شيطانية)، والضجة التي ثارت حول ما ورد فيها من كفر وهذيان وهلوسات متهالكة مبتذلة عقلاً وفكراً وفناً أدت إلى نبذه وإبعاده ومحاصرته؛ فها هو يمضي حياته تحت وطأة الخوف والتوجس والحراسة الدائمة، ويناله اللعن والتبرؤ والنبذ من المسلمين جميعاً.

قد تكون روايته قد عادت عليه بالفائدة المادية، نتيجة لتبني الغرب لها نكاية بالمسلمين، إلا أن ما فقده من معنويات ومن حياة هادئة طبيعية، ومن احترام وتقدير، أكبر من كل الفوائد المادية. وإذن فإن الشهرة التي ينالها أمثال هؤلاء هي شهرة نكدة، تُعرّف بهم، ليُنْبذوا، ويفقدوا الاحترام، هم وكل من يشد على أيديهم، أو يتآزر معهم، ويدافع عن حريتهم، التي لا يمكن أن تسمى حرية، وإنما هي فوضى وتمرد وهدم؛ فالحرية بناء وإبداع، وإنشاء للجديد المفيد، القابل للحياة

ضمن توافقات مع الجموع المطروحة عليها تلك الإبداعات. ولقد كـان مـن فوائـد الضجة الأخيرة أن تعرف الناس إلى المئات ممن يدعون الثقافة، وهم يكمنون بـدعم رسمي في مؤسساتنا الثقافية، وتوجهت كثير من إشارات الاستفهام القابعـة خلـف أسئلة تقول:

من الذي جمع كل هذه الفلول الخاوية هنا في هذه المؤسسـات الثقافيـة؟ أهـي قرارات رسمية مقصودة، تريد أن تجعل منهم دريئات يلتف من خلفهـا الرسميـون على دساتير الدول التي تنص على إسـلامية البلـدان وتشـريعاتها، فترمـي بهـؤلاء بمواجهة الجماهير، التي تريد الإسلام، وتقبل عليه أفواجاً، ولا ترضى بحريـة كلمـة ملغومة، تريد هدم كل شيء، لاستبداله بنفايـات غربيـة، بـدأ أصـحابها يكتشـفون وهمها.. وبهلوسات ماركسية ماتت عملياً وواقعياً وأصبحت رمماً نتنة..؟ نرجو أن نكون واهمين في هذا التصور، كما نرجو أن تسرع الجهـات الرسميـة إلى تصـحيح مثل هذا الخلل الفادح، الذي جعلها مع الجماهير على طرفي نقيض، ففقدت بذلك أهم شرط لشرعيتها.

- وأما السؤال الثاني فهو الذي مـن خلالـه سـوف نسـمح لأنفسـنا بعـرض بعض النصوص التي تنشر تحت اسم حرية الإبداع لنسأل أسئلة بريئـة: حـول هـذا الإبداع؟ ومدى قيمته؟ وصلاحه للحياة والتعامل اليومي، بل ومدى قابليته لحمـل الحلم العام للأمة. وإليكم هي:

(١) العمل الشريف، أنا فعلته اليوم/ نظرت إلى البحـر/ رأيـت في الشـارع ناسـاً معطلين، ثم دخلـت الحانـة/ شـربت قنينـة بـيرة/ وخرجـت بـرأس سـكير متصوراً أن الله كان في الأصل عصفوراً/ يزقزق للشعوب/ [1].

(٢) أيها القمر المنهوك القوي/ أيها الإله المسافر كنهد قديم/ يقولون إنك في كـل

---

(١) من كتاب مختارات ص٦١ (طبعة وزارة الثقافة في مصر).

مكان على عتبة المبغى/ وفي صراخ الخيول/ بين الأنهار الجميلة/ [(١)].

(٣) حدث الراوية

- ذلك العام سمي عام الرمادة/ (صار لون البلاد ولون العباد رماداً) كان عاماً من الجوع لكن – كيف ننكر ما قدرة السماء/ (السماء تبالغ في شكها) وثنى الراوية أجلى عمر أهل التوراة/ عن نجران وخيبر/ واستقصى في هذا سر الآيات/ [(٢)].

ترى هل في هذه النصوص إبداع بالرؤية السديدة للإبداع؟ هل الاحتجاج على ظلم المجتمع والحكم المستبد يكون بالشرب ثم شتم الإله؟ ما الذي قدمه هذا الهذيان المتهافت النسيج والتركيب والمعنى والشكل من إبداع؟ وهل الاستهتار بالرب وجمعه مع الألفاظ الكريهة والاعتداء الشنيع على مشاعر ومقدسات الناس من خلال تركيب لغوي متهافت ركيك أمي يشكل إبداعاً له موضوع أو قيمة أو معنى، أو يمكن أن يحدث استمتاعاً ببناء فني متماسك؟ أبداً.. إن هذا الهذيان ليس إلا نفثة مصدور بمرض الهدم. وهل التشكيك بالأقدار ومنشئها والتودد إلى يهود بتسميتهم (أهل التوراة)، والغمز من تصرف عمر والآيات إبداع وتاريخ..؟ هل أحسن هؤلاء وغيرهم استعمال الحرية المعطاة لهم؟ وهل ما أنتج هؤلاء يمكن أن يطلق عليه إبداع يستحق الحرية المطلوبة؟ أم أن هؤلاء الناس خابوا في تجربة الإبداع عالي البناء الفني والموضوعي، المستحق للحرية المضبوطة، فمالوا إلى إفراغ ما في دواخلهم من شك ومن قيء ومن أمراض وهلوسات سكيرة حاقدة أو قابضة؟ وهم يريدون أن يقرعوا أسماع الجميع (ليل نهار) بمثل هذه النفايات المتخمرة في مزابل الآخرين، تحت راية اللافتة الموسومة بحرية الإبداع المطلقة، لينشروا ظلامهم وببغاويتهم العجمى، ليغيبوا بها كل آفاق الثقافة في أمتنا..،

---

(١) حزن في ضوء القمر ص١٠٥ (طبعة وزارة الثقافة في مصر).

(٢) أدونيس، الكتاب أمس المكان الآن،ج١، ص٢٢.

وليتبنوا خلطاً عجيباً مقصوداً بين الإبداع الأدبي الثقافي، وبين التعرض لمقدسات وثوابت الأمة، أو ليمزجوا الصالح والطالح من الفكر والعلم، بحيث تضيع في هذا المزج الحقائق، ويعمّ التطرف العلماني النابذ لكل عقل وتعقل وفهم للمجتمعات وتطورها وحاجاتها..!!!

إن وضع هؤلاء القوم يمثل اللحظة العربية الراهنة، من انهيار بنيوي في كل الاتجاهات، إذ يعلق كل عاطل من المواهب عطله على مشجب الإبداع، ويمسك بعصا العجز، ليهش بها على ركيك الكلمات، التي يرصفها جنباً إلى جنب مع الضياع، ظاناً أنه فوق الجميع، وأن عليهم أن يستمعوا له ويقولوا آمين، وإلا فإن كل مستنكف يصبح عنده ظلامياً قامعاً للفكر والإبداع، إرهابياً طائر الشرر والضرر؟!

ولا بد في النهاية من ذكر كلمة موجهة للصحافة العربية، وخصوصاً منها المهاجرة إلى الغرب إذ حاولت هذه أن تشعرنا من خلال المقالات التي نشرتها بشأن الإبداع: إنه ليس من مثقفين في عالمنا إلا هؤلاء الذين أصبحت كلمة يكتبونها أغلى وأعظم عندهم من كل الأديان، محاولين أن يفهمونا أن نصوصهم تحتاج إلى مختصين (بقراءة الفنجان) كي نفهمها ونقيمها.. لماذا يا هؤلاء هل هي مكتوبة بلغة غريبة عنا؟! نعم إنها لكذلك.. إنها لغة الفصام مع الأمة، مهما حاولت صحف الغربة وبيانات من يسمون أنفسهم بالمثقفين – ادعاء لا برهان عليه – أن يفهمونا أنهم يحتلون مساحات الثقافة في آفاقنا كلها، مع العلم أن ذلك وهم أنشأته عمليات إبعاد الكلمة المتزنة الوسطية وكاتبيها عن واجهات الصحف، وغالبية وسائل الاتصال الأخرى.. فكم من التجديف بحق الأمة ومقدساتها وأخلاقها وحياتها ومستقبلها تخفيه هذه الحملة من التضليل الفكري باسم حرية الإبداع، التي أصبحت حصان طروادة العالمانيين المتغربين وفلول الماركسيين اللائذين بحمى مؤسسات الثقافة ومحاباة السلطات لهم..؟!!

-٢-

الشعر وتيار الوعي

١- تمهيد

يزاحم الغزو قلوبنا وعقولنا، حتى غدت البسمة على شفاهنا مستنكرة، لأن فيها ضوعاً من ذلك المخزون الأصيل. فهم يريدون أن يحرثوا حتى شفاهنا، ويريدون أن يستولوا على بيت الشعر، نعبر به عن مكنونات الهوية، التي يحاولون درسها بغبن يكيلون به لنا كل بضاعتنا.

يقولون لنا إن الشعر تمرد على كل شيء، إنه الجنون الثائر على كل ثابت؛ على اللغة وقواعدها ومراسيها، على الدين ويسمونه "الموروث" والقيم ويدعونها "التقاليد" على الأخلاق ويسمونها "العادات"، على الإنسان المتوازن ويسمونه "المتحجر" أو الظلامي.. إنهم يريدون للشعر أن يهدم كل شيء تكمن فيه قوة لهذه الأمة، يريدونه أن يكون تهويماً، وجداناً خرباً يركض خلف كل ناعق بالخراب، فيقيمون له صنماً، يقدمون عند أقدامه القرابين، ويتلون عند مقامه الدنس طلاسم الثناء والمديح، ويكتبون له الشهرة والمجد بأحرف من غبار يطمس كل جميل من حلم هذه الأمة.. بدءاً من شيخ الحداثين "أدونيس" وانتهاءً بأصغر عضو في هذه العشيرة البائسة.

٢- ما هو الشعر:

عقود النصف الثاني من القرن العشرين، اتسمت بسيطرة غامرة لاتجاه مدمر في الأدب العربي، ونخص بالذكر عقود الستينات والسبعينات والثمانينات من القرن الماضي، حيث تعملق ذلك الاتجاه فأكمل قوس هيمنته في تلك السنين العجاف على سطح الحدث الأدبي، وهو اتجاه اختص سعيه بتحويل الشعر إلى ألغام موقوته، تدمر كل ما يلامسها من فكر أصيل أو قواعد أمينة، تحفظ وجه الأمة

من التماهي في وجوه الآخرين، أو تحفظ ضفافها من الغرق في أمواج العقول المريضة، التي حاولت أن تجعل من مرضها بطولات تغييرية، أو مغامرات تطويرية، بينما هي في حقيقة الأمر لا تستطيع أن تغادر عتبات التخريب المخزون في خلايا عقول المرضى، إما لأنهم ينتمون إلى طوائف معادية أصلاً لتاريخ وعقيدة الأمة، وإما لأنهم يقبضون ثمن ما يجدفون به، وإما لأنهم أسلموا عقولهم وأرواحهم للآخر فهم منومون يتصرفون كيفما يريد هذا الآخر، وإلا كيف يريدنا أصحاب مقولة: "الشعر كمثل الحلم، ليس مجالاً للفهم العقلاني" أن نقتنع أن شعراً قائماً على تلك المقولة مفيد لنا، أو أنه يعبر عن حالة تطور..؟! أو كيف يريد هؤلاء منا أن نقرأهم، أو نتابعهم، أو نفتح لهم بوابات عقولنا مع أنهم يقولون: "المبدع هو ابن لحياته وعصره، أكثر مما هو ابن لأبيه وأمه، الفرق بينهم وبينه: هم يعيشون في عالم لا يتطلب منهم، لكي يؤسسوا أمجادهم (أو يستعيدوها) إلا إعادة تنظيمه، وفرض سياستهم عليه، أما هو فلا يرى في هذا العالم نفسه إلا ما يجب تهديمه وتجاوزه".

ألم أقل لكم: إنهم عوامل الهدم في هذه الأمة، بدءاً من الأدب والشعر، وانتهاءً بكل فقرة بناءة، متجاوزين الفهم السليم للأمة المتمثل بالقول: إن الأمم ماض مستلهم، وحاضر يبنى، ومستقبل غائب يخلط الماضي مع لحظة الحاضر، ليقوم هو سوياً وخلقاً كاملاً، لا مولوداً تائهاً منبتاً لا أرضاً قطع ولا راحلة أبقى.. وهو ما يريده كل عدو للأمة. إلا أن الحال تغير منذ العقد الأخير، فقد بدأ الأدب الإسلامي يتلمس طريقه، وراح الشعر الإسلامي يثبت شيئاً من الحضور الواعي لمفهوم أنه تلك التجربة الشعورية الواعية، التي تستلهم بيقظة تامة كل التجارب الصادقة السليمة، لتمزجها مع لحظة التوتر، التي لا تلبث أن تخضع للعقلانية، لتُخْرج نصاً بديعاً فنياً مفيداً للحياة، ملتزماً خطوط عقيدة المسلم في الكون والإنسان والحياة، وإلا فإن الشعر خصوصاً والأدب والكتابة عموماً يكونان عبثاً وتهويماً، خارجين عن تيار الوعي المطلوب دائماً في كل تصرف إنساني إسلامي، وداخلين تحت طائلة الذم الذي قرره كتاب هذه الأمة المقدس "القرآن" حيث قال

رب العزة جل من قائل: ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ ﴾ **الشعراء**. ولا يخرجهم من ذلك أبداً إلا أن يتمثلوا الاستثناء الذي جاء به القرآن الكريم: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ ﴾ **الشعراء**

إن حياة هذا الإنسان على وجه الأرض لم يوجدها رب العزة عبثاً، بل إن الله جلت قدرته جعل هذا الإنسان خليفة: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ﴾[1] وخلافة الله في الأرض مهمة إيمانية وإعمارية عظيمة، فهي أمانة كبرى، لا يمكن أن تصرف وتُضيّع وراء الهائمين على وجوههم، ممن جعلوا من أنفسهم – كونهم شعراء- قيمين على الناس، رواداً لهم، بل نظروا لأنفسهم على أنهم أنبياء يحملون لهم هدم ما عندهم، ليتركوهم في الفراغ القاتل، لا يحكمهم في كل ذلك إلا المزاج والهوى. إن الإنسان المسلم الملتزم شاعراً كان أم إنساناً عادياً، عنده من المهمات الكبرى في الحياة، ما يشغله عن التهويم خلف تلك الأمزجة الشاعرية المتقلبة، التي لا تستقر على قرار، ولا تنهل من معين الفطرة الإسلامية الصافية، فينطبق عليها حينئذٍ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذام للشعر إذ قال: "لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً حتى يريه (يفسده) خير له من أن يمتلئ شعراً" حديث صحيح رواه الإمام أحمد.

إن هذا الكلام يهدم نظرية الفن للفن، وكذلك نظرية الشعر كلام يفرغ به الشاعر مشاعره وعواطفه ولحظة التوتر، مهما كانت نوعية الكلام ومعانيه، فضلاً عن نظرية الشعر لحظة حلم غير واعية يحكمها اللاشعور، وتخضع للباطن الإنساني، مهما كان ذلك الباطن مضمراً من دمار لحياة هذا الإنسان على وجه الأرض. فحين يقول أدونيس:

---

(١) البقرة (٣٠).

(سنبلة سنبلة، لا تتركوا سنبلة، فإن هـذا الحصـاد فردوسـنا المسـتعاد، بلادنـا المقبلة، ومزقوا القلوب قبل الصدور، واقتلعوا الجذور، وغيروا هذا الـتراب الـذي أقلهم، وامحوا زماناً روى تاريخهم، وامحوا سماءً حنت علـيهم، سـنبلة سـنبلة، كـي ترجع الأرض إلى عهدها، سنبلة سنبلة).

ترتطم تلك الكلمات ببناء قائم، وجدران أمينة، لتفكك كل شيء، ولا تـؤول عملية الهدم هذه إلى شيء عند شيخ عشـيرة الهـدامين هـذا، إلا أن ينكشـف غبـار معركته الوهمية عن "شخصانية" مريعة يريد هذا الحاقد أن يوظف الكلمـات البائسـة المقيتـة مـن أجـل جـائزة، في طريـق الوصـول إليهـا تقـدم القـرابين مـن الثوابـت والمتحولات، وتباع الضمائر لبني صهيون، الذين يقعدون مستترين خلف تقرير من يستحق تلك الجوائز "النوبلية"!

٣- أمثلة البناء والهدم:

لقد قالوا: الشعر ديوان العرب، وهذا القول بيان بَنّـاءٌ لمـا يؤديـه الشـعر مـن خدمة، فهو: مسجل تاريخ، وباني حياة مستقيمة، ومعبر أمين عن أهداف وأخـلاق وأحلام أمة، يدخل معركة الإبداع مـن الأبـواب الواسـعة للعقيـدة والمبـادئ الـتي تحملها، وتريد تنفيذها، لتحقق على الأرض صـيغة الإعمـار الإيمانيـة، الـتي تقـود إنسانها للفوز بالعاجلة والآجلـة. وتوضـيحاً لـذلك نضـرب مـثلاً بإنشـاد النابغـة الجعدي رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله:

بلغنـا السَّـما عـن جـدنا وجـدودنا   وإنـا لنرجـو فـوق ذلـك مظهـرا

قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إلى أين؟ قال: إلى الجنة يا رسول الله، قال صلى الله عليه وسلم: لا فُضَّ فوك[1].

وأغراض الشعر البناء مفتوحة على مصـاريعها، لا تحـدها حـدود، ولا تغلـق أمامها الأبواب، فليس من ضابط لها إلا الضابط الفـني، والضـابط الإيمـاني، وهـي

(١) محاضرات الأدباء/ الراغب الأصبهاني/ مصدر سابق/ ص٧٩ من المجلد الأول.

بعد ذلك شاسعة الأبعاد، واسعة المدى، وسع الحياة وما فيها من تنوعات في العواطف والعقول والتفكير والنظر، فالشاعر المسلم الباني عندما يقف أمام الطبيعة الجميلة الحالمة، وتهزه النسمة والزهرة، وزقزقة العصفور وصوت خرير الماء الرقراق، وحفيف الغصن المائس، وتزدحم نفسه ومخيلته الحساسة بشتى العواطف، يلتجئ في الحال إلى إيمانه، فترتسم في عقله لوحة إيمانية فائقة لموحيات تلك المناظر الخلابة، فتخرج كلماته معبرة عن عظمة موجد تلك الجماليات وخالقها، مازجاً ذلك مع عظم الأحاسيس والعواطف التي ركزها الخالق العظيم في تركيبه النفسي، وحينئذٍ تخرج من بين عقله وشفتيه وأنامله وقلمه لوحة ولا أجمل، ولا أوقع، ولا أكبر نفعاً للإنسان!.

ولا بأس أن نضرب مثلاً عن تجربة إبداعية في هذا المجال:

يقول خليل مردم في إظهار الآيات الإيمانية من خلال إبداع الخالق في زينة هذا الكون:

من شأنك التصوير والإنشاء   لك من سمائك صفحة زرقاء

والفجر حاشية بها حمراء   والبدر فوق جبينها طُغرَاء

والنيران على الصحيفة أسطر

خرّت لك الشمس المنيرة تسجد   ومن الخشوع جبينها متورد

والبحر مسجور الجوانب مزبد   والموج مصطخب به يتنهد

أمسى يقيم لك الصلاة ويذكر

وهكذا فإن الشاعر المؤمن يبدع الصور المؤمنة، التي تصنع النفوس المؤمنة، لتقيم الحياة المستقيمة الخادمة لمهمة المؤمن في الخلافة. وهذا المثال الذي أوردناه ينطبق توجهه الإبداعي الراقي على كل الأغراض الشعرية المفتوحة الأبواب، كي يلج إليها الشاعر المؤمن، فيرصف منها اللآلئ التي ترتقي بالحياة، فتجعلها قابلة للعيش الرغيد المهتدي بربانية عملية، معطلة كل معوق لتطور حقيقي في المعاني

والأشكال، إذا كان هذا التطور موصولاً غير منبت ولا خامل، فهو يتطلع إلى مستقبل منسوجة حواشيه من قطر ندى الإيمان.

إن العجز الذي يحاصر مدّعي التطوير من خلال برنامج الهدم، الذي يتبنونه ليس إلا حيلة يهدهدون بها آمالهم المريضة الحاقدة، يريدون بواسطتها احتلال مكانة شهداء التطوير (الهدم) المأجور المأفون. فيستروا بذلك عورات شعرهم المتهالك فناً وموضوعاً. وانظر واقرأ إذا شئت الهراء الآتي:

- لو مرة عرفت يا إلهي الكسيح كيف الزنا يصير[1]

***

- غنيت للأفول
رقصت فوق جثة الإله[2]

***

- فنحن جميعاً أموات أنا ومحمد والله
هذا قبرنا أنقاض مئذنة مُقفرة[3]

***

- يتعرى الشرق من كل كرامة.. ونضال
والملايين التي تركض من غير نعال
التي تسكن في الليل بيوتاً من سعال
والتي تؤمن في أربع زوجات وفي يوم القيامة[4]

***

(١) بلند الحيدري

(٢) أدونيس

(٣) بدر شاكر السياب

(٤) نزار قباني

• نشـارك الله جـلّ الله قدرتـه ... ولا نضيق بها خلقاً وإتقانـاً

وأين إنسانه المصنوع من حمأ ... ممن خلقنا أطياباً وألحانـا[1]

***

• سـلام على كفر يوحـد بينـا ... وأهلاً وسهلاً بعدها بجهنم[2]

***

ولا يسعنا في هذا المقام إلا أن نقول: كم هزلت الكلمـة وتاهـت علـى أفـواه هؤلاء التائهين؟!.. فجاءت ركيكة ضعيفة، بصياغة متداعية واهنة، تجأر بالاحتجاج لدى الأصالة والتقدم معاً: أن أميطوا هذا الأذى عن وجوهنا وحواشينا، فالإنسـان والإيمان والإبداع يصيحون جميعاً: ليس هؤلاء منّا ولا نحن منهم، إنهـم ومـن لـف لفهم ونهج نهجهم غرباء، يدفعون باتجاه الهدم ليس إلا. وذلك تكسباً لمال أو مكان ومكانة، يبحثون عنها عند الآخر أو تعضيد قناعة صادرة من بواطن حاقدة مريضة، أو تجديد بصائر عمياء هائمة معتمة.. وفي كـل الحـالات هـم كـذابون. وقـد سـئل عوف بن أمية السكوتي عن نسـج الشـعر فقـال: "إن جـددت كـذبت، وإن هزلـت أضحكت فأنت بين كذب وإضحاك"[3]. وهذا الكلام ينطبق طبعـاً علـى كـل شـعر ليس له هدف إلا الكذب والتكسب، مبتعداً عن نبيل الأهـداف والغايـات وعـالي المرتقى من البيان السحر، والشعر الذي مرّت قراءته آنفـاً مـن هـذا النـوع الهزيـل، الذي ينضم إلى قافلة من ذمهم رب العالمين بقوله في سور ة الشـعراء: ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ ﴾

ومن المفيد في هذا السياق إيراد بعض ما قاله سيد قطب في ظلال القرآن حول

---

(١) بدوي الجبل

(٢) الشاعر القروي

(٣) محاضرات الأدباء/ مصدر سابق مجلد (١) صفحة ٨٠.

تفسير آية "الشعراء" ومنه: "فهم يتبعون المزاج والهوى، ومن ثم يتبعهم الغاوون الهائمون مع الهوى، الذين لا منهج لهم ولا هدف، وهم يهيمون في كل واد من وديان الشعور والتصور والقول، وفق الانفعال الذي يسيطر عليهم في لحظة من اللحظات تحت وقع مؤثر من المؤثرات"[1].

ويقول أيضاً: "ومفرق الطريق أن للإسلام تصوراً خاصاً للحياة كلها، وللعلاقات والروابط فيها، فأيما شعر نشأ من هذا التصور فهو الشعر الذي يرضاه الإسلام" وهذا هو فعلاً القول الفصل في أي شعر يطرح، مهما كانت قيمته من الناحية الفنية عالية. فهو شعر مقبول ومفيد، أو قول فاسد مهين، لا يرقى إلى درجة أن يقرأ أو أن يسمع، أو أن يكون له مقام لدى المسلمين مهما ضجت الأوساط التائهة باسم قائله[2]..!

---

(١)، (٢)في ظلال القرآن، سيد قطب، م٥، ج١٩ ، ص٢٦٢١

-٣-

الحداثة والأدب والشعر والالتزام

١- معالم أصحاب المذهب:

كأي هجين غريب تخرج كلماتهم من أرحام مشبوهة، يحاولون بها اقتلاع الأصول، ليزرعوا مكانها تيهاً وظلاماً، يكررون الرأي في كل مرة، يطلقونه بصياغات مختلفة، لكنها الفكرة نفسها، يعيدونها، وهي تحمل سمومها ونفثها الأفعواني، لا يملون من التكرار، لأن لديهم مهمة ممتلئة بألف عين من الغدر، إنهم يركبون موجات ادعاء التقدم وحماقات التمرد، ولا يستطيعون بذلك كله مغادرة همهمات التقليد؛ تقليد الآخر في نظراته ونظرياته، بعد أن غادر الآخر تلك النظريات منذ عقود طويلة، وخَلّفها لهم، ليتقلبوا في وحولها وعقابيلها المزاجية، التي لا يستقر لها قرار، ولا تستوي على مهاد مريحة.

إنك تراهم وقد أدلجوا في ادعاء الفكر والتأدب بالفكر، يقولون: "الفكر العربي فكر أصولي في مختلف اتجاهاته سواء تناول قضايا المجتمع الراهنة أو قضايا الحضارة... العمل الأول للفكر هو نقد أصوله وأصله، هو نقد المسلمات، لا نقدها وحسب، وإنما الخروج منها كذلك، كل شيء يجب أن يخضع للسؤال والبحث.."(١).

واتجاهات هذا الكلام معروفة، لا يمكن أن تخفى على أحد، إنها اتجاهات تريد أن تأتي على كل شيء، وتخلع من كل النصوص قدسيتها؛ ليخضع – برأيهم – القرآن والسنة للسؤال والنقد، فلا مقدس، ولا ثبات، ولا دوام لشيء.

وهي اتجاهات معروفة الأصول، مفهومة المصادر، لم تخترعها عقول هؤلاء المقلدين التابعين، البائعين لعقولهم في سوق التجارة العولمي. لقد استعاروها من

---

(١) مقابلة مع أدونيس أجرتها مجلة الوسط العدد ٤٠٥/ ٧ نوفمبر ١٩٩٩م.

أسيادهم الحداثيين أمثال: رامبو، وجيراردي نيرفال وغيرهما من الذين طرحوا مثل هذا التوجه في العقود الأولى من القرن العشرين، ثم عدا الزمان والتطور على مثل هذه النظريات، فجاء ناس من بني قومنا في عقود الستينات والسبعينات من القرن العشرين، يستلهمون تراثاً ميتاً في عرف الأسياد، يديرون به الألسنة بطريقة رطانية مبهمة غامضة، علّهم بتلك اللهجات يخدعون مجموعات من بني جلدتنا، فتبهرهم "الطلسمة" التي يديرون بها الحديث حول فكرهم المستوحى. (وقد حدث ذلك فعلاً) بفعل الجهالة والانبهار؛ الجهالة التي غزت الكثيرين عن طريق التعليم والغزو الفكري، فابتعدوا عن تراث الأمة وتعلمه وفقهه والبناء فوقه، والإضافة إليه، ونتيجة لذلك حدث عقم شديد وانبهار في عقول هؤلاء وفكرهم، وانبتت المنابع عن نفوسهم، ولكون أن الغازي تبنى هؤلاء كمبشرين محليين لنظرياته وفكره في الأدب والحياة، صار لزاماً عليهم أن يظهروا أمام الجماهير والنخب في آن بصورة مخترعي النظريات والفكر الجديد، ولكن العقم قتل كل خلايا الإبداع في عقولهم ومخيلاتهم، فلم يجدوا بين أيديهم إلا أن يكرروا ما قاله الغازون، وهكذا.. فقد تهيأت لهم أفكار بدايات القرن، فاقتبسوها، وحرروها مزودة بطلاسمهم لتأخذ طابعهم الغموضي بعض الشيء، فتبرز وكأنها من بنات أفكارهم.

وهكذا كانت وانتشرت "حداثيتهم" المزعومة المشبوهة المشوهة، وراج بين نخبهم هذا التوجه، يتداولونه، ويكتبون عنه، ويحتكرون كل وسائل الإعلام للكلام فيه، بما أن وسائل الإعلام هذه أصبحت ملكاً للجهات الرسمية في معظمها وهذه الجهات – في الغالب الأعم- تبنت مهزلة الحداثة بهذا المعنى الذي ذكرنا، وهو معنى اقتباس النظريات والدعوة إليها دون النظر إلى ما تعنيه هذه النظريات. ولنضرب مثلاً على ذلك بالدعوة إلى "البنيوية"، والحماس لها، واجترارها من قبل الناقدين العرب كما هي رغم أن هذه النظرية قامت وامتدت وانتشرت في النصف الأول من القرن العشرين، في مدرسة براغ ١٩٢٨/ على يد جاكبسون ورفاقه، وهي نظرية وطريقة لرؤية العالم والأشياء، مبنية على رؤى وأساسات غريبة عن

مجتمعاتنا، وتجربتها مختلفة تماماً عن تجاربنا. كما أن حيثيات قيامها وامتدادها وتطورها، غير متوفرة في مجتمعاتنا، بل إن مجتمعاتنا وما يدور فيها وما يتداول على أكثر المستويات فيها، لا يصل بنا إلى حاجة اقتباس مثل تلك النظرية لتحكيمها في رؤانا للعالم والأكوان والإنسان، بله التحليلات الأدبية واللغوية، ونحن على أقل تقدير بغنى عن المبالغات التي تقود إليها هذه النظرية، فتعقد الأمور، وتحمل النصوص ما لا تحتمل، وتجر القارئ إلى متاهات وطلاسم لا يكاد يفهمها، وذلك لتصبح قراءة قصيدة أصعب من تحليل قضية على درجة التعقيد لا يقابلها إلا تعقيد العالم[1].

ولا يقتصر الأمر عند هؤلاء المقلدين على اجترار ذلك الفكر واعتباره رمز التقدم والتطور، بل إن المفارقة في عملهم تكمن بين رفضهم التراث العربي والإسلامي وازورارهم عنه لمجرد أنه تاريخ ميت مضى.. وتبنيهم لتراث البنيوية الذي مضى بعد أن أضيفت عليه إضافات قاتلة من قبل أصحاب ومنابت البنيوية، إذ جاءت بعد البنيوية "التفكيكية" وموت المؤلف، وغيرهما من رؤى نقدية وفكرية، تريد تغييب القديم والتراث، وهي مفارقة تدل دلالة بعيدة على مدى ما أحدثته النوايا السيئة في عقول هؤلاء تجاه الفكر الإسلامي عموماً والفكر النقدي الأدبي العربي الإسلامي خصوصاً. ويتعزز هذا الأمر إذا علمنا أن كثيراً مما تنبه إليه بعض المعاصرين من غربيين وغيرهم، قد وُجِدت له أصولٌ في تراث عبدالقاهر الجرجاني وابن جني وحازم القرطاجني وابن خلدون وغيرهم. ولكنه الكره المتأصل في نفوس هؤلاء لكل ما يمت لأصل من أصول هذه الأمة، رسخه الضياع الناتج عن الهجرة الكاملة إلى الشاطئ الآخر، مع التخفف المشبوه الأهداف من كل الأفكار الجميلة المبسطة، التي تجيب على كل الثنائيات المتقابلة التي جعلت البنيوية منها عقداً فكرية وأدبية وإنسانية لا تكاد تفهم، وإذن، فهؤلاء ملتزمون.. ويمكن أن نطلق عليهم صفة الالتزام بأحد معانيه، وهذا يقودنا إلى التعرف على معنى الالتزام.

---

(١) مجلة الأقلام تموز ١٩٩٠ من بحث حول البنيوية للدكتور عمران الكبيسي، ص٥٢.

٢- ما هو الالتزام:

لغة: التزم الشيء أو الأمر: أوجبه على نفسه، ولازمه، فهو ملتزم ملازمة ولزاماً، داوم عليه[١].

إذن فالالتزام في اللغة هو أن يوجب الإنسان شيئاً على نفسه، ويكون هذا الالتزام إما نابعاً من قناعة تامة للشخص بما أوجبه على نفسه، فهو يفعل ما توجبه عليه قناعته بإرادة منه مستقلة، وإما أن يكون نابعاً من اتباع للآخر، نتيجة انبهار به وبرأيه أو تأدية لعمل مأجور مدفوع، وإما أن يكون الملتزم يسير خلف نفس مريضة حاقدة سادية، تدفعه إلى هدم وتحطيم ما حوله من بناء وأخلاق وثوابت.

وبناء على ما تقدم فإن الالتزام إما أن يكون إيجابياً تجاه الإنسان والمجتمع والأمة، فيدفع في طريق التقدم والتطوير المبنيين على الأصول والقياس، وإما أن يكون سلبياً، يدفع باتجاه الهدم والتخريب، تحت أسماء التطوير والتقدم والبناء...

القولُ إن الالتزام الإيجابي المبني على الأصول والقياس في تطور أشكال الأدب ومضامينه (أي الملتزم بالتطوير من خلال الرؤيا الإسلامية والبناء فوق أساسات راسخة)، هو الذي نسميه الأدب الإسلامي الملتزم.

وأما الالتزام السلبي، فهو ذلك الذي ادّعى أنه يريد التطور في الأدب والشعر، فلجأ إلى تحطيم كل القوالب الموجودة، والأسس والأصول القائمة على قواعد من تاريخ طويل وتجربة بعيدة الغور في الزمان والنضج، وقد دلّ واقع حال أصحاب هذا الالتزام البائسين، للانقياد إلى الالتزام بأصحاب المذاهب الغربية التحطيمية ونظرياتهم المريضة النابعة من داخل عوالمهم الذاتية الداخلية، المنبتة عن التاريخ والضوابط والمجتمع المحيط، فأصبحوا بذلك ملتزمين بمذاهب الهدم، دون أن يستطيعوا بناء نظرة مستقبلية خاصة بهم، فما بني على الخطأ لا يمكن إلا أن يشق

---

(١) المعجم الوسيط، مادة لزم.

طريقاً معوجاً حتى النهاية التي نتوقعها لمثل هؤلاء الملتـزمين بالتقليـد للغـربيين مـع ادعائهم العريض: بأنهم تحديثيون تطويريون، ولنقـرأ في هـذا المجـال مـا قالـه أحـد أعمدة الثقافة الغربية واصفاً ثقافة الغرب التي يحاول هؤلاء سوق أقدامنا باتجاههـا. يقول جارودي في كتابه (في سبيل حوار بين الحضارات): "إن المونولوج الغربـي دام طويلاً، لقد حاول توجيه كل الثقافات بمقتضى تصـوراته الخاصـة. إن تفهـم ثقافـة أخرى يتطلب تحولاً جذرياً في عقليتنا الغربية، ومجهوداً كبيراً من التواضع الفكـري ومن التلقي. إن غير الغربيين بإمكـانهم أن يسـاعدونا علـى الإحسـاس بمحدوديـة رؤيتنا الكونية، إني أتمنى أن يأتي متعاونون من أفريقيا وآسيا لإتمام تربيتنـا، فـنحن متخلفون في عدة نقاط حياتية أساسية".

٣- عورات التزامهم:

أ- إنهم كأسيادهم على الشاطئ الآخر يـدعون إلى انمحـاء أثـر (الأيـديولوجيا) (والدين منها بصورة خاصة) بحجة أن (الأيديولوجيا) لا تلائم الشعر، الـذي حاول هؤلاء أن يجعلوا منه أباً وأماً لثقافة الأمم وذلك من أجل أن يستطيعوا من خلال الفوضوية في أصول إبداعـه إدخـال الكـثير مـن قـيم الهـدم علـى الناس. واقرأ إذا شئت ما قاله الناقد التونسي محمد الخالدي: "فـلا الشـعر بمـا هو كائن علوي (انظر كلمة علوي وصـفاً للشـعر) يقبـل بـالنزول إلى سـاحة الأيديولوجيا والامتثال لقيودها وأوامرها، ولا الأيديولوجيا تقبل نزق الشعر وانفلاته وتمرده الذي جبل عليه"[١].

ب- تكريس المديح والتبني لحركـات الهـدم في الأمـة؛ مـن الزنادقـة إلى الخـوارج وحركات التمرد؛ مثل حركة الزنج والقرامطة وعدّهما أنهمـا تمـثلان حركـة الإبداع في التاريخ الإسـلامي، وعَـدِّ الخـارجين والمفسـدين في هـذا التـاريخ المبدعين الحقيقيين في المجال الثقافي والشعري: وقد عدّ أدونيس ابن الراونـدي

(١) جريدة الزمان عدد ٤٧٩ ١١٨٤/ ٩٩ إلفة الخطيئة.

وابن مقبل وأمثالهما من هؤلاء في كتابيه الثابت والمتحول (والكتاب) اللـذين يعدان - بكل ما ورد فيهما- إدانة تامـة لتـاريخ أمتنـا، وإخضـاعاً لـه لمقولـة تفوق التاريخ الغربي في كل شيء... تلك المقولة التي بهرت الرجل ومن تبعه في طريقته ومذهبه، فجاء كل ما كتبوه مـن تـاريخ أو إبـداع إن جـاز تسـميته إبداعاً عبثاً وتخريباً مقصودين بحد ذاتهما. ولنقرأ في هذا المجال بعض ما خطته أقلامهم في هذا الاتجاه: فمما كتبه أدونيس:

"الفكر العربي السائد فكر يقين ووثوق، الفكر تحديداً، هو حركـة دائمـة مـن إعادة النظر في اليقينيات كلها، بمختلف أنواعها ومستوياتها، أن تفكر هـو أن تزلزل الوثوقية"[1] وكتب شعراً يريـد منـه هـدم كـل شـيء إذ يقـول: أحـرق ميراثي/ أقول أرضي بكر/ ولا قبور في شبابي[2].

ج- إخلاء ذمة الأدب والشعر من أي رسالة سامية، سوى غايات الهدم والتمـرد والفوضى التي يريدون لكل شيء أن يخدمها؛ اللغة، الكتابة، الأنظمة، الثقافة والمثقف. والاقتصاد والسياسة وحتى الجغرافيـا. إنهـم يسـتهزئون بـالملتزمين بثقافة الإسلام، وينعتـون هـؤلاء بـالتحجر وفقـدان المبـادرة وتابعيـة النظـر والفكر وعدم القدرة على الابتكار، هـذا في الوقـت الـذي يـدخلون فيـه في الحرفية والاتباع الببغاوي لكل ما هو آتٍ مـن الشـاطئ الآخـر، لا يبتكـرون ولا يبـدعون، حتـى إذا أدخـل الكـاتبون في الغـرب الغمـوض في كلمـاتهم واستعملوا فيها الرموز المبهمة، والأساطير اليونانية، والأسماء الوثنية الكافرة لآلهة اليونان وقصصها المختلفة العجيبة، نسج الببغاوات عنـدنا علـى نفـس المنوال وسـاروا علـى الـدرب نفسـه. وأوهمـوا النـاس أن هـذا هـو الأدب والشعر الحـق، وكـل مـا عـدا ذلـك فهـو كـلام يسـير علـى خطـا السـلطة

---

(١) أدونيس النظام والكلام ص١٥٧.

(٢) أدونيس / قصيدة/ .

والسلطويين، سواء تمثلت هذه السلطة بالدين والإسلام والقرآن والسنة، أو تمثلت بالحاكم الذي يغطي نفسه بالنفاق للإسلام. ورغم أن كل ما كتبه ويكتبه هؤلاء، لم يجد له صدىً أو استجابة عند جماهير الأمة؛ فقد أتيح لهم من النشر الإعلامي والدعائي، والانتشار الإسمي، ما لم يتح لأي من الشعراء والأدباء الملتزمين إيجابياً، وبدا المشهد الثقافي العربي تحت وطأة ضجيجهم كأنه آيل للسقوط في حبائل هؤلاء الغرباء.

ولكي ندلل على صحة ما ذهبنا إليه لا بأس من أن نختم القول باقتباس بعض تهويمات هؤلاء وهدرهم لفضيلتي الشكل والمضمون، وتجاوزهم لأخص خصائص ومقدسات الناس. واستمع إلى شيخهم الخرف "أدونيس" يتكلم في كتابه (الكتاب أمس المكان الآن) إذ يهجو كرسي الحكم (السلطة) ويعتبرها منسولة من أحلام الأنبياء.

"سبحانك، يا هذا الكرسي/ مصنوعاً برؤوس قطعت/ مصبوغاً/ بدم طفل حيناً، وشيخ حيناً/ منسولاً جزءاً جزءاً/ من أحلام نبي/ سبحانك يا هذا الكرسي/"[1].

وأدونيس هنا ناقل فكر غريب بلغة ضعيفة، مستعملاً صوراً متآكلة ومرهقة من كثرة ما عدى عليها العادون، هذا مع أنه يشدد في كل كتاباته على تفجير اللغة، وإيجاد لغة شعرية جديدة غير منتمية.. إنه مقلد، منذ استعار مديح قصيدة النثر من الكاتبة "سوزان برنار". إلى يوم الناس هذا، ظاناً أنه بمهاجمة مقدسات الأمة وأسباب قوتها يستطيع أن يفعل شيئاً للأسياد، الذين راحوا يفرغونه[2] في معاهدهم لينفث لهم من أحقاده سماً زعافاً، لعلهم به يواجهون صحوة الأمة المباركة، التي بدأت تضيء مساحات الظلام التي خلفتها أقلام هؤلاء منذ الخمسينات، من مثل أدونيس

---

(١) أمس المكان ص٢٩٦.

(٢) كان آخر تفرغ له في معهد برلين للدراسات العام الماضي.

ويوسف الخال وكمال أبو ديب وسعيد عقل، ومن لف لفهـم، واتبـع خطـى مجلـة شعر التي أنشأوها في الخمسينات وكرسوها لبـث سمـومهم السـوداء، الـتي بـدأت تتلاشى تحت وقع خطى تقدم ضياء الصحوة. وصدق الشيخ محمـد الغزالـي حـين قال في مثل هؤلاء: "راقبـت إنتـاج ذوي الأسمـاء اللامعـة في هـذا الميـدان المبتـدع، فوجدت السمة الغالبة على هـذا اللغـو المسـمى شـعراً لا تتخلـف أبـداً، الـتفكير المشوش أو اللا تفكير، والتعبير الذي يجمع الألفاظ بالإكراه مـن هنـا ومـن هنـاك، يحاول وضعها في أماكنها، وتحاول هي الفرار من هذه الأماكن.."[1].

(١) مشكلات في طريق الحياة الإسلامية، الغزالي، ص١٠٥.

-٤-

كلمات حول رواية

عينان مطفأتان و قلب بصير

(رواية بتقنية غير مسبوقة)

١ - كلمة أولية :

ليس المهم أن تكتب.. بل المهم أن تكون في كتابتك إضافة طيبة إلى المرصوف في رفوف المكتبات. فكم من كتابة وكتاب لم يأتيا بجديد، ولم يضيفا إلى معارف القارئين فكرة ما أو تقنية كتابية لا تبليان على كثرة الرد، ولا تُستهلكان من كثرة التداول بين الناس؛ إذ إن كثيراً من الكُتّاب يعمدون إلى ما هو مجموع ومطروق من الأفكار والحقائق في كتب المبادرين الأولين أو الآخِرين فينضدونه جاهزاً في كتبهم، ولا يزيد فعلهم في الكتاب الجديد عن الوصل والتنسيق بين تلك الأفكار والحقائق بكلمة أو حرف أو جملة أو فقرة، ثم يميلون إلى غلاف الكتاب ليسطروا فوقه بالحرف الكبير (تأليف فلان)، وكان الأحرى والأدق والأكثر أمانة أن يُكتب على الغلاف: من إعداد فلان .

احتجت لهذه المقدمة كي ألج إلى الكلام عن مادة رواية حميمية دافئة، لأساوم الفن فيها، فألفت بذلك نظر القارئ الكريم إلى مكمن الإضافة الفذة في هذه الرواية، التي كتبها الأديب الأريب المبدع الأستاذ عبد الله الطنطاوي ، الذي أهدى المكتبة العربية و الإسلامية نيفاً وسبعين كتاباً، وذلك منذ أن بدأ الكتابة يافعاً في حلب الشهباء مسقط رأسه وحتى اللحظة وعلى امتداد سبعين عاماً من عمره، الذي نرجو له أن يمتد و يمتد بالخير والعلم والهدايا النافعة للأمة على طريق نهضتهاو المجد الذي نرجوه. إنها رواية: (عينان مطفأتان و قلب بصير) .

ومنذ البداية أقول: إنني لن أدخل في مماحكات الترجمات الرديئة للنقاد الحداثيين عندنا، الذين يعتاشون على موائد يستدرجهم إليها الغموض والطِّلسِّمات

المترجمة لمصطلحات نقدية، ولدت وترعرعت في تربـة مغـايرة لتربتنـا، وانتشـت بـيراعٍ أدمن فكراً و ثقافةً وحياةً لا تَمُتُ جميعها بأي سبب لفكرنا و لثقافتنا ولحياتنا، بـل إنـني سـوف أعبـئ كلمـاتي بـدفء وبسـاطة ديباجـات الروايـة الجديـدة للحبيـب عبـد الله الطنطاوي، دون محاباة ولا مراعاة لما بيننا من علاقة عضوية حميمة، تتغيا انتقال مجتمعاتنا من حياة ضيقت موجوداتها المادية منافذ النجاة علـى ناسـها، إلى وسـع الحيـاة في ظـل مبادئ دينهم، وهو الوسع الذي يمتد على مساحتي الأولى والآخرة، فلا يكون العيش في الدنيا هو آخر المطاف، كما هو وارد في ذهن القاطنين فـوق الأرض في عصـرنا المـأزوم بشتى أنواع الأفكار ومختلـف أشـكال الحيـاة الضـنك: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾ **طه**

إنها الرواية التي تنقلك للعيش في مجتمع تتمنى على الله أن تكون عضواً فيه ، تتمتع بدفء أحضانه، وروعة علاقاته، وسمو تعاملاته، دون الحاجة إلى الخوض في الصراعات المقيتة، التي بنى عليها السرد الغربي، والسرد المقلد له في ديارنا أساساته و تقنياته، بعيداً عن كون الحياة مليئـة بالسـرد المشـوق ذي الفـن العـالي، وهـو في الوقت نفسه لا يثير غرائـز الحيـوان بـين النـاس، بـل هـو يصـوغ الواقـع بالمعـاني السامية، التي جعلت من الإنسان إنساناً، عن طريـق السـرد الهـادف، النابـذ لتفـرد التسلية والتهريج، المبتعد عن صياغة واقع يتناول في الأغلب الأعم قـاع المجتمعـات وأقبيتها، ويبرزها على أنها هي سيرة الإنسان .

٢ - هذه الرواية :

أيها القارئ الكريم.. اسمح لي الآن أن أقـول كلمـتي في هـذه الروايـة، ذات الإضافة الجديدة في تقنيتها، وهي كلمة تحمل رأياً نقدياً، أرجـو لـه أن يكـون لافتـاً منبهاً إلى قضية تقول: إنه من الممكن بناء سـرد نـاجح قـائم فـوق قـيم الخـير ومـا تصوغه من علاقات في المجتمعات وحسب. كما أن الدراما يمكـن لهـا أن تخلـو مـن (أيديولوجيا الصراع)، التي نسجت كل مقومات الحياة الغربيـة، لدرجـة أن محاولـة الإنسان الاستفادة من المسخرات المادية التي خلقها الله له في الكون سموها صراعاً

مع الطبيعة، وامتد الأمر ليقولوا: مات فلان بعد صراع مرير مـع المـرض، إلى آخـر المصطلحات التي عبأوها بالصراع و الصرعات .

وها أنذا تحتلني متابعة الرواية حتى الثمالة، لم أستطع مغادرتهـا حتـى نفضـت الغِلافَين، فلم أُبق على حرف فيها إلا وقد تأملتـه بعيـنين فاحصـتين، وقلـب واعٍ، وعقل حاضر، فتبرجت الرواية لي بتقنية لم أعهدها قبل في أيـة روايـة قرأتهـا، ومـا أكثر ما قرأت، وكان عجـبي الكـبير يقـول: كيـف اسـتطاع الكاتـب أن يصـرف في روايته هذه تذكرة سفر لها دون دفع أتاوات تقنية الصـراع، الـتي تهـيمن علـى كـل السرد الراوائي الحاضر، ومع ذلك فقـد ظـل الكاتـب الموهـوب صـامداً في لجـة لم يخضها أحد قبله_ حسـب علمـي_، وذلـك مـن خـلال الجملـة البسـيطة، واللغـة السهلة، والحوار الموظف، والتشويق المستوفي تقنياته، والغاية السـامية الـتي رافقـت القص، من أول حرف حتى آخر نقطة خضراء ختمت العمل المتقن بإشارة تعجـب وإعجاب، والفخر بالإمكانية الطيبة، التي وفقت للحصول على تجربة، هـي إضـافة تحاول الخروج من زمن الهزيمة أمام مواضعات تقنيـة كرمهـا غيرنـا، وسـرنا خلفهـا دون محاولة من تأمل و نظر يفضيان إلى تقديم جديد. إنـني لا أريـد أن أتكلـم عـن صاحب الرواية (عبد الله الطنطاوي) الأديب الناقد القـاص الروائـي المبـدع، فهـو أشهر من تقديمي له في كلماتي هذه.

ولا أريد أن أتكلم عن أسلوبها وبساطة لغتهـا وعظـيم مراميهـا، فهـذه كلـها مبذولة في كل أنحاء الرواية، فما عليك أيها القارئ الكـريم إلا أن تطـالع الروايـة، لتجد مصداق ما أقوله لك، فهي تمتعك بالأسلوب السـهل الممتنـع، الـذي يتجلـى بأروع وأغدق مما تتصور، واقرأ معي إذا شئت هذا المقطع من الرواية وتأمل ما قلته لك: (مرت الأيام والسنون والشيخ صالح يحقـق نجاحـاً تلـو نجـاح... كـان دائمـاً الأول على صفه، كان جسمه ينمو نمـواً عجيبـاً، حتـى صـار فـارع الطـول، مديـد القامة، وكان نظيف اللباس، أنيـق الهنـدام، يصـفف شـعره بيـده، ويلمـع حـذاءه، ويكوي ملابسه، ويتعطر، ولا يخرج من المهجع إلا في كامل أناقته، وكان يخدم نفسه

وأساتذته وزملاءه، تدفعه مروءته و ذوقه الرفيع إلى تقديم العون إلى من يعرف ومن لا يعرف، حتى غدا علماً في المعهد الشرعي) من الرواية ص ٥٣

انظر إلى هذه الكلمات من هذا المقطع: (يلمع ، يكوي ، يتعطر ...) وتأمل بساطتها وقربها من جميع الناس، مهما كانت ثقافتهم، لكنها كلمات بسيطة تدخل في سياق من المعاني السامية: (الأناقة، النظافة، النجاح الدائم، التفاؤل الجميل)، وكذلك فإنها تشارك في بناء خلق عظيم هو التواضع، الذي يجعل هذا العملاق (الكفيف) الفتى صالح المشهور بالشيخ صالح ، يخدم الجميع، ويحب الجميع، رغم جسمه العملاق، ونجاحه الكبير، وأناقته الفذة، وإنها لمفارقة لا تستوعبها سوى نفس عالية، خلت من دواعي الصراع على عروض هذه الدنيا الفانية..!!

ومع أن شخوص الرواية بدأوا خيرين وظلوا خيرين حتى النهاية، وذلك تجاوزاً لتقنية غربية في تطوير الشخوص، أقول: رغم ذلك فقد وجدنا الأشخاص يطورون وسائلهم في الخير الذي تبنوه ولم يحيدوا عنه، بما يشعرك أنهم يتطورون وبتشويق جميل دون أن يشعرك ذلك بأن هناك جموداً في حركة السرد، وهذه بدعة رائعة أخرى في فن السرد تضاف إلى بدعة الإضافة الحسنة التي ابتدعها الكاتب المبدع في هذه الرواية، وهي التخلي عن عُقَد الصراع التي تلف حياة الغربي في كل مناحيها، ذلك الصراع الذي أوجد لديه التطلع الدائم إلى ما بين أيدي الآخرين من أملاك وثقافات وخصوصيات وحياة ، ليستلبها ويستأثر بها.

إننا أمام قصٍّ بتقنية جديدة لأدب إسلامي خالٍ من عقدة الصراع، لديه وعي بواقعية حياتية تمد اليد بالخير للجميع، وتنسج من مروءاتها خيوط وصل مع الإنسان، لمجرد أنه إنسان، تستحق حياته وخصوصياته وممتلكاته الاحترام والتعاون والتعاضد، لا العدوان والانقضاض والهيمنة والغطرسة التي صنعتها جميعاً خصوصية الصراع.

إن الله الذي خلق الإنسان العليم بما يصلحه قد بين لنا خطيئة منهج الصراع،

عندما حاول أحد المخلوقين الاعتداء على أخيه وسلبه ممتلكاته وحياته، فجعله يندم، ويتعرف على مدى ما اقترفته يداه نتيجة انطلاقه من فكرة الصراع (فأصبح من النادمين). إن الحياة في الإسلام فكرة خيرة، يقابلها الظلم، وفيه يكون التغلب على النزعة غير الخيرة بالحوار والإقناع وتقديم الحياة القدوة وحسب. أما امتشاق الأدوات الأخرى فلا تكون إلا للدفاع عن النفس تجاه من لم تنفعه حروف الحوار، فراح يضرب يمنة ويسرة غير موظف لخطوط الخير التي خلقها الله فيه. إن الرواية تمنحك استنتاجاً بأن الصراع يمكن أن يكون بين خير وخير؛ أي سباقاً لأَطْر النفوس على خطوط الخير فيها.

وفي خضم هذه العطاءات الفذة في صفحات هذه الأمثولة السردية الخيرة، لم ينس الكاتب الذي يكتب ليفيد و ينفع، أقول: لم ينس الإشارات اللماحة الرائعة التي زخرت بها نصوص الإسلام، وذلك دون أن يشعرك بافتعال الموقف السردي أو الخروج عن سلاسة المرور بين السطور، ومن أمثلة ذلك ما جاء في الصفحة (٤٤) من الرواية، حين وجه الروائي ذهن القارئ إلى عادة منتشرة بين الناس هذه الأيام، عندما يجلسون في المساجد وفي المحافل يستمعون لقارئ القرآن، فيهتفون عند نهاية كل وصلة تلاوة من القارئ، الله ... اللـ ..ه ...

في ضجيج غير لائق بالمناسبة، واقرأ معي كيف كانت رشاقة التوجيه إلى هذه القضية، وكيف جاءت ضمن السياق، دون أن تشعر بافتعال أو خروج عن النص والمناسبة.

(أخذ الأستاذ مصحفاً وفتحه على سورة المائدة، وعلى الآية الثانية والتسعين، وأمر الشيخ صالحاً بالقراءة، فتلا الشيخ صالح صفحة كاملة بصوته العذب، وترتيله الجميل، وكان كلما توقف عن القراءة، هتف الطلاب: الله. فنبه الشيخ تلاميذه إلى أن هذا الذي يفعلونه غير وارد، والأولى بهم أن يستمعوا وينصتوا ويتأملوا ويتفكروا ويخشعوا، فلزم الطلاب الصمت ...) .

وفي الصفحة نفسها من الرواية تقع إشارة مهمة، هي ثقافية و تتعلق بالأخلاق والسيرة الذاتية الملتزمة، وقد تطرق إليها الكاتب باقتدار المتمكن من أدواته أولاً ومن لغته ثانياً؛ إذ كانت الإشارة محببة متقنة داخلة ضمن السرد بلا صناعة أو افتئات على سياقه في هذه الجزئية من الرواية، ولنقرأها معاً:
(استوقف الأستاذ تلميذه صالحاً عن التلاوة، ثم قال له: سيكون لك شأن يا شيخ صالح فاتق الله ولا تبطر. قال صالح في ثقة: لن تبطرني نعمة يا أستاذ، فأنا أعرف نفسي، أنا ولد أعمى، رزقه الله هذا المعهد العظيم، وهيأ له شيوخاً فضلاء، وزملاء نجباء، أنا لن أبطر.

قال غسان: حتى لو صرت وزيراً كطه حسين؟ أجاب صالح: حتى لو صرت وزيراً يا أخي، فسوف أبقى أذكر نشأتي الأولى في قريتي الفقيرة وأسرتي المستورة الحال)، وهنا يحق لي أن أقول: ألا تلاحظ أخي القارئ هذا التخلص الرائع في هذه المداخلة، بأن أخرجها الكاتب المقتدر من سياق السرد إلى سياق الحوار، وذلك كي لا تأتي مفتعلة، كأنها داخلة على النص بقصد الإشارة إلى قضية ثقافية أخلاقية، هي تغير طه حسين عن نهجه الأزهري، بعد إذ بهرته زائفات غربية فرنسية وغير فرنسية، وكأنه لم يكن ذلك الدارس في معاهد العلم ومعاهد الأزهر، مفارقاً لأماني والده بأن يكون نبوغ ابنه الكفيف في بناء متجدد فوق الأساسات الحضارية الإسلامية النصية و العملية..!!

وهكذا جاءت هذه المداخلة سهلة سلسلة مقبولة، بل معطية للسرد أبعاداً ثقافية وأخلاقية محترمة. إنها إذن القدرة على استعمال التقنية المناسبة، والاستحواذ الرائع على اللغة. إنها رواية ناجحة بجدارة بالإضافات الماثلة في إدارة دفة مئتي صفحة من السرد دون استخدام تقنية الصراع، متجاوزاً صاحبها فيها كل عوامل الوهن التي كان من الممكن أن تستحوذ عليها بسبب نبذ آلية الصراع (الغربية) ، بل جعل الرواية كلها قائمة على تقنية التسابق في الخير، فهي خير وخير أشد، مقترباً الكاتب القدير فيها من كل عناصر النجاح لرواية رائعة مشوقة هادفة ذات توظيف

إنساني عال، توازن بين الحراك الخارجي و الحراك الداخلي لأحداث الرواية، ففيها الصبر ثم الصبر والتسليم، وفيها حراك الخارج بشكل (دراماتيكي)، من أجل إخراج الداخلي للشيخ (صالح) مما كان يحيطه من عناصر مثبطة، وهنا كان صبر الشيخ المتحرك لتغيير أوضاعه، مساعداً عظيماً على حراك الخارج (من الذين يحيطون به)، لإخراجه للناس بالصورة الرائعة التي رسمها كاتب الرواية، التي طرحت قضية الخير والحراك به في كل اتجاه، وكأنها هي المحرك الماثل للبناء والنجاح و النهوض، بعيداً عن كل الترهات التي تطرح الآن في مجتمعاتنا مبنية على الصراع و التضاد وإقصاء الآخر، وجعل النتيجة في إنتاج التقدم (صفرية)؛ لأنها تراوح بين الفعل ورد الفعل .

أخي القارئ: إني أدعوك إلى التقدم باتجاه مطالعة الرواية بنفسك؛ لترى بعقلك وذاكرتك صدق ما أوردته في هذا الاستعراض لهذه الرواية التي يحق لي أن أطلق عليها: (رواية الواقعية الإسلامية) وهي مدرسة تستلهم الصور المجتمعية الراقية التي صنعها الإسلام وكرسها على مدى الزمان، صيغة تصنع المجتمعات الآمنة الخيرة .

-٥-

(إنهن النساء) وصهوةٌ من صهوات السرد الفني

أولاً: مقدمة : شيءٌ من التاريخ

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الْأَلْبَابِ ﴾ [يوسف: ١١١]

وقال جلّ من قائل: ﴿ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ الأعراف

ليس علينا أن نقدم القرابين في محراب ما نسجوه من قواعد لقيام فن القصة على قدميه؛ فأبواب هذا الفن مفتوحة لمن يستطيع الإضافات، أو لمن يستطيع الخروج على القواعد المتواضع عليها؛ إذا جاء الخروج في مكانه اللائق من الانتفاض على أيقونات وضعية هي ليست وحياً، لا يمكن تجاوز حدوده أو القفز فوق حواجزه. وأنا لست في هذا الكلام متألياً على أحد من أرباب هذا الفن، فغوغول الروسي الذي قيل: إنه أول الرواد الروس لهذا الفن، بدأه على غير منوال، ودون قواعد، وهو لم يلق التقدير المناسب إلا بعد لأيٍ من نشر قصته (المعطف).

وها هو (موباسان) في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، يكتب القصة الحديثة، متخطياً ما كان متعارفاً على تسميته (بمصنع الأكاذيب)؛ الذي هو اجتماع مسائي لأركان سكرتارية الفاتيكان ورفاقهم في قاعة فسيحة من قاعات الفاتيكان، حيث تُقص القصص والحكايات والنوادر، التي تدور مواضيعها حول أناس إيطاليين عاشوا في القرن الرابع عشر الميلادي، وكان أخصب المجتمعين خيالاً رجل اشتغل قسماً كبيراً من حياته سكرتيراً للبابا ويُدعى (يوتشيو)، إذ بدأ بعد السبعين من عمره، (وقد تزوج من فتاة عمرها ١٥ عاماً)، يدون القصص والحكايات والنوادر التي قصها أو سمعها في مصنع الأكاذيب، وقد سمى مدونته هذه (الفاشيتيا) وكذلك تخطى (موباسان) ما كان متداولاً قبله ولمدة ثلاثة قرون من

صور أدب الحكايات المسمى بـ (النوفلا) الذي كتبه (جيوفاني بوكاتشيو)، ودونه تحت مسمى (الديكامرون) التي كتبها عام ١٣٢٨م وطبعت عام ١٤٧١م في البندقية.

وبكتابة (موباسان) للقصة بصورتها الجديدة ، تم الاعتراف له باكتشاف هذا الصنف الأدبي المهم، ولم تكن هناك قواعد وأسس ينظر (موباسان) فيها، فيكتب على أساسها؛ إذ إن كل القواعد التي وضعت فيما بعد، كانت استقراءاتٍ واستنتاجاتٍ من النقاد نتيجةً لمراجعتهم للمدون من هذا الفن ؛ الذي بدأ يأخذ طريقه، ويرسخ مكانته ضمن أبواب الادب، حيث لا يستطيع صنف آخر أن يقوم بديلاً عنه في تصوير اللحظات العابرة في الحياة الإنسانية بصورة فنية مؤثرة، فهي تقع على مسافة بين الشعر والرواية، إذ إنها تحتوي العواطف الشعرية الحميمة، وفي الوقت نفسه تستخدم السرد في وضع هذه العواطف في صورة نثرية راقية، تروي بسرعة لحظة واحدةً من لحظات حياة إنسان أو مجموعة أناس، مختزلة الرواية الطويلة، التي تحتاج إلى أناة في النفس، وتطاول في الزمن، وسيرة تطورية لحياة متكاملة، لا حاجة للقصة القصيرة لتتبع تفاصيلها، وامتدادها الزمني والمجتمعي .
وبناءً على ما تقدم، نستطيع القول: إن القصة القصيرة في تاريخها وانتقالها من الحكاية إلى القصة القصيرة الحديثة، قد شاركت في صنع جذورها، وبناء أساساتها كل الشعوب، ولم يكن ذلك البناء حكراً على الغربيين كما يحاول بعضهم أن يرسخه في أذهان الناس ، تلك المحاولات التي أرادت أن تجعل من الحضارة كائناً غربياً وحسب، وأن تاريخ العالم إنما يقع داخل البقعة الأوروبية وضمن حراك شعوبها دون غيرها، على الرغم مما في هذا التوجه من تضليل وعنصرية وافتراءٍ على الحضارة، التي هي مشترك، ساهمت فيه وفي تطوره جميع الأمم والشعوب حتى البدائية منها .

وإذن فالقصة القصيرة بدأت بالحكاية شفاهاً ، وكانت تزدحم بالأساطير والمجهولات والغموض والسحر وقصص الآلهة الوثنية وغيرها.. وشيئاً فشيئاً

انتقلت الحكاية إلى الاهتمام بشؤون النـاس في حـدود الطرائـف والحكايـات الـتي تروى في جلسات خاصة، ولا هدف لها إلا التسلية وهدر الوقـت، ولم تَخْـلُ تلـك الطرائف من الخوارق أو المبالغات.. وقد شاركت في صنعها كل الشعوب؛ ففي دار الإسلام انتشرت حكايات القصاصين والحكواتية، إلا أن التدوين لها بـدأ في وقـت مبكر قبل أن يبدأ في أوروبا، فكان حي بن يقظان، وبيدبا، وشهرزاد، وغيرهـا، ثـم كانت ملامح الحكايات الأوروبية، التي أتينا على ذكـر صـورتها، ثـم كـان (دانـتي، وسرفنتس، ونرفال، وقلعة تشوسرالإنكليزية)، ثم تم الانتقال إلى القصة الحديثة التي ابتدأ مسيرتها (جي دي موباسان) الفرنسي، و(غوغول) ثم (تشيخوف) الروسـيان ومن سار على دربهما، واقتفـى أثرهمـا ، مـع ملاحظـة التطـور في التقنيـات الـتي أدخلت عليها فيما بعد، كالتحليل النفسي وتكثيف اللحظة، هذا فضلاً عـن بعـض الغموض والرمز والسحر، وهي مداخلات انتقلت إلى القصة القصيرة الحديثة مـن عصر الحكايات. وقد شارك في صنعها كُتَّابٌ عرب ومسـلمون منـذ أواخـر القـرن التاسع عشر، وبدايات القرن العشرين مثل تيمور والمنفلوطي وغيرهما.

ولا بد لنا هنا من التنويه بالسبق الإسلامي في صنع البناء السردي الفـني المـتقن وتدوينه، وذلك من خلال قصص القرآن الكريم، الـتي حملـت تقنيـات عاليـة، كنفـي الحشو، وتكثيف اللحظة، وتحميل الالفاظ الفنية اللازمة، والبلاغة المعجزة، والدخول إلى قصص الناس العاديين في الحياة والأهداف الراقيـة، وكـذلك مـن خـلال قصـص الحديث الشريف المشوقة المكثفة التي اتبعت تقنيات القصص القرآني.

وفي التاريخ الإسلامي الطويل، كانت المقامات قصصاً قصـيرة، تعتمـد أسـلوب المقالة، وتنهل من الحكاية طرافتها ومبالغاتها وبساطتها، ولكن دون الـدخول في عـالم الأساطير، بل إنها رسخت في القصة الحديثة أمر الاهتمـام بأوضـاع النـاس العـاديين واللحظات العابرة في حياتهم، عن طريق التصوير "الكاريكاتوري". وقد حجزت ألف ليلة وليلة لها مكاناً في الذروة من السرد المحكم، الذي يحتوي على الهـدف والتسلسـل الحياتي في الرواية الحديثة، وتطور الشخصيات والاهتمام بالزمان والمكـان، مـع بـث

الخلفية الإسلامية في حنايا القصص المتتابعة المتصلة، هذا رغم ما وجه لألف ليلة وليلة، من نقد إسلامي بأنها تتضمن الإباحيات مما يلفظه الأدب الإسلامي..

لقدأوردت هذه المقدمة الطويلة ، لأبين كيف أن الغربيين حاولوا تسييد حضارتهم، ونفي أي دور للآخرين في البناء الحضاري الإنساني، وكذلك لأُبيّن خطل هذا التفكير، ومن ثمَّ لأوضح أن أدبنا كان سباقاً إلى بناء القصة، وحديث السرد الفني، وأن القصة القصيرة والرواية الحديثة وجدت لها جذوراً في أدبنا الإسلامي، وما هذا الاحتفاء الأوروبي الكبيربألف ليلة وليلة إلا برهان على هذا الذي نقول.

ثانياً: مواصفات وميزات عامة للمجموعة

وهنا أكتفي بهذا القدر من التاريخ، لأدخل في موضوعنا الرئيسي، وهو مجموعة الأخت الأديبة العربية الإسلامية (هيام ضمرة) الموسومة بـ (إنهن النساء)، فأقول: إن الإبداع الإسلامي متواصلٌ، وهو ليس حكراً على الرجال ، بل إن الكثير من النساء تفوقن على الرجال في هذا الباب، وقد برهنت الأخت ضمرة على صحة هذا القول، حين امتلكت من خلال مجموعتها هذه صهوة عالية من صهوات السرد الفني، الغني بتجربته، والمتقدم في التحكم بعنان اللغة، حاملاً الثقافات النافعة من خلال سرد فني ملتزم.

لقد قرأت المجموعة من أول حرف فيها إلى آخر حرف، واستمتعت بقصصها واحدة واحدة، ومما استذكرته أثناء القراءة: كيف أن العولمة أدخلت على حياة الناس عجائب من السلوك والاهتمام الحياتي، كما استذكرت في المناسبة المنفلوطي وجهوده التي وطّأت الرضا والقبول للقصة في عالمنا العربي، وكيف أنه رسخ الواقعية الاجتماعية النقدية الرومانسية في السرد، وجاء من بعده يوسف إدريس الذي نَهَجَ نَهْجَ الواقعية الاشتراكية، هذا فضلاً عن إضافات نجيب محفوظ الذي تتبع طبقات قاع المجتمع، وأعطاها زخماً في مسألة السرد، مقلداً بذلك موقف العديد من أدباء الغرب تجاه النقلة الصناعية والرأسمالية الكبرى، ذلك الموقف المأزوم

المهزوم أمام الآلة والتغيرات الهائلة، الذي ملأ الصدور بالتقيح والفصام، فراحت الكتابات تنفث الكلام على القراطيس من نفوس مأزومة وصدور متقيحة، فلا يخرج منها في الغالب إلا صور الهزيمة الداخلية، ووقائع الانتقام من المجتمع وذلك باللجوء إلى قاع المجتمع في التصوير والسرد، وإن كان ذلك التصوير قد حُرِّر من بعضهم بفنية عالية أخذت صفة العالمية.

لكن المهم في الأمر القول بأن ستاً وتسعين صفحةً، ضمت تسع قصص احتوت على تجارب حياتية غنية، اختزنتها القاصة الإسلامية هيام ضمرة فضمنتها هذه القصص، وأن رؤية للكون والحياة تنطلق منها الكاتبة الأديبة، وهي رؤية نيرة، وفضاء إسلامي عام، يحوزان ملكةً سردية مقتدرة ، فيها المهارة، وفيها الكثير من ممتلكات السرد الفني، فهي توظف هذه الملكات من خلال ذاكرة واعية ، وخيال بعيد المرامي، بهدف التغيير؛ تغيير القارئ والسامع تجاه قضية أخذت من القراطيس مساحات شاسعةً في أيامنا، فهي تلقي عليها الضوء بوعي عميق يقول: إن الرجل والمرأة في مجتمعاتنا الحالية مظلومان، من خلال الفرص المحاصَرة، والكلمة الحرة الغائبة، والرؤية الضبابية لمايجري من عولمة متوحشة للعالم، تفرض على الناس (الرجل والمرأة) طريقاً واحداً ضيقاً، ليمر منه العالم باتجاه واحد وإلا.. ؟!

ثم إنها بعيداً عن المباشرة، وبعيداً عن الوعظ ، وإن كان الوعظ في رأيي المتواضع ليس قادحاً في السّرد، إن أُحسِن استخدامه، بل هو في بعض الأحيان يكون واجب الاستقدام.

أقول بعيداً عن كل ذلك، وبالاستهلالات الناجحة، وبالأسلوب الرشيق، والتمكن المكين من اللغة واستخدامها الموفق، وببعض الشاعرية، والحوار الفني الموظف توظيفاً تقنياً دقيقاً، والسرد السريع الحركة، وتكثيف اللحظة، والذاكرة الواعية والرؤية النيرة ، وتوظيف المؤثرات مثل : التحليل النفسي العميق، واستخدام تيار الوعي في مكانه. أقول بذلك وغيره تُهدينا الأديبة الإسلامية هيام ضمرة ضمامةً من وردِ صياغاتها المقتدرة في مجموعتها الأولى الموسومة بـ (إنهن

النساء)، فهي مجموعة أنثوية النكهة، إنسانية الأبعاد، إسلامية الضمير المتخفي في ثنايا المعالجة، إنها تهدينا بوحاً قادراً على لفتِ الأنظار، واستدراجِ التشويق، وتحقيقِ الإمتاع في آن...

ولست في تقديمي لهذه المجموعة، وصاحبتها الكريمة مستلاً قلم النقد، الذي يحاكي البنيوية أو التفكيكية، لأعزل الكاتبة عن النص، ثم لأهوم كما يهوم أصحاب النظريتين في غياهب الوهم والأساطير النقدية، والطلاسم التي لا يكاد يفهم أصحابها معنىً لها فضلاً عن المتلقين، فهي ترجمات رديئة لنصوص نقدية، في غالبها لا تلزمنا في أدبنا العربي والإسلامي، وذلك لما تزخر به مسيرة وأهداف وبناء الأدبين الغربي والعربي من مفارقات، يصنعها بُعد التجربتين والخبرتين عن بعضهما.

لكنني في تناولي لمجموعة (إنهن النساء) سوف أجتمع مع الميزات، التي احتوت عليها هذه الباقة الكريمة من التجارب اليومية، مقارناً لها مع المقومات الفنية، التي أتيت على ذكرها في قراءتي هذه، وذلك لأشرك المستمعين والقراء الكرام في استجلاء مواطن الإجادة في هذه المجموعة، ولن أشدد على بعض الهنات التي أرى أنها ليست قادحةً في التشكيل الجمالي الهادف لهذا الجهد المشكور من الأخت الكاتبة الفاضلة.

ثالثاً : من الميدان

ولننخرط الآن في الميدان.. ميدان التفاصيل في المجموعة القصصية (إنهن النساء)، وعرضها على المقومات التي ذكرناها آنفاً، فنقول: المجموعة وجه يدخل البيت بقوة على الخلط العولمي، الذي تثّاقل كلماته في دروب الناس، فتقعد لهم كل مرصد ، وتدخل عليهم الأبواب دون استئذان، وتمتطي الألسن، وتسكن في بعض الحالات القلوب والعقول، ولكن وجه المجموعة يحاول تدارك الموقف؛ فهو يطلق صرخة في الجو، الذي تحاول العولمة جاهدة من خلاله اختراقاً اجتماعياً إنسانياً متدنياً في أخلاقه.. في طموحاته.. في رؤاه.. يحمل حكمة باردة مغرضة تقول : عندي التطور! عندي التقدم! عندي العصرنة! تروغ من بين أيديكم ومن خلفكم ،

ومن تحت أرجلكم..!

ويتوجع قلب المجموعة القصصية، لعلها بالتوجع تبعد عن جدار المجتمع غربة تترعرع فوق أرصفتنا، وفي شوارعنا، وفي بيوتنا، وهي محاولة جادة تبتغي أن لا تسقط أحلام بعض الناس فوق الحافات المدببة للعولمة، وكل ذلك تفعله المجموعة من خلال استهلالات خارقة لكل مقومات القصة، وداخلة في كل مسام تشكيلاتها ونهاياتها.. إنها استهلالات ناجزة مشوقة، ونحن الآن أمام مثل استهلالي من قصة (إنهن النساء) يقول: (رهيبة هي لحظات الظهيرة على الطريق الوحيد، الذي يربط وسط البلد المعروف بالمشرق بمنطقة السالمية) وقد دخل هذا الاستهلال في كل جزئيات القصة فيما بعد.. فهو الذي يحرك خيالاً مريضاً لرجل، نسج الحرُّ والزحام ومتابعة سيارة امرأة لسيارته كل تقنيات القصة حتى نهايتها، التي تفاجئ الرجل بإنارة الموقف، ليتبين له أن سيارة المرأة التي أثقلت خياله بشتى الأفكار المريضة، لم تكن متابعة له، وإنما هي سارت خلفه بالتتابع القريب؛ لأن صاحبة السيارة كانت امرأة متزوجة سعيدة بزوجها، وهي تسكن في البناية نفسها التي يسكنها.

_ وها هي قصة (مساواة خرقاء) تتقدم نحونا لنحتفي بها بالقول: أنتِ موطئُ اقتباسنا لمثلٍ يدلل على شريط الذاكرة الواعية والرؤية النيرة، تستخدمهما الكاتبة باقتدار في تقنية القصة، لتقنعنا أن دخول الرجل على مجتمع النساء دون مسوغٍ أو ضرورة، خصوصاً إن كان رجلاً واحداً يلازم مجموعة نسائية بشكل مستفز، فهو يحضر جلسات عملهن ونقاشهن، ويعطل حريتهن في القول واتخاذ ما يلزم بشأن مهمتهن، لا يتركهن حتى وقت الطعام والراحة، إنها ذاكرة واعية للأصول والأخلاق المتبعة، ورؤية نيرة للواجب في مثل هذه المواقف، واسمع الكاتبة تصف الموقف قائلة: (الدخيل يظهر أينما ظهرنا، ويحل أينما حللنا، ينفث وجوده في أعيننا، نظرات الغيظ والاشمئزاز تهشم أريحيتنا، كلعنة قبيحة، خلال ورش العمل الصباحية والمسائية، خلال تناول الوجبات والاستراحات، يستمع إلى مناقشاتنا، يتابع حواراتنا، يرصد حركاتنا، يرقب خطواتنا ، يعبئنا وجوده بالقشعريرة). إنها

ذاكرة تحتفظ بشيء من الخصوصية والرؤية القادرة على التمييز بين ما هو عقلي، وما هو غير منطقي في العلاقة بين الرجل والمرأة، وهي تدحرقضية عولمية تريد مساواة مطلقة، وليس تكاملاً فذاً في الأدوار والتكليف، ولقد أشاعت الكاتبة الإسلامية مثل هذه الذاكرة والرؤية النيرة في معظم قصصها بعيداً عن المباشرة.

ولا ننسى في هذا السياق أن نشير إلى ما يحتويه النص الذي اقتبسناه من تدفق سريع في وصف الموقف، تقتضيه اللحظة والمناسبة بجمل قصيرة متتابعة قاصمة، عبأت القارئ معها، خصوصاً وهي تحمل شيئاً من الشاعرية تضمنتها بعض هذه الجمل، مثل: (ينفث وجوده في أعيننا، يعبئنا وجوده بالقشعريرة).. وهي جمل تزيدمن حميمية تفاعل القارئ مع الموقف، وهذا الأسلوب يمتد في معظم قصص المجموعة، ليشكل طيفاً من الأخيلة الرفيفة المؤثرة في مسيرة السرد، ومحاولة إقناع المتلقين بالموقف، ولا بد أن هذا التشكيل في استعمال الخيال بلمسة شاعرية، وتقنية التدفق السريع داخل بوتقة تيار من الوعي، ينبئ بأنه ليس دخيلاً ولا معطلاً لسير الحدث، بل هو يصب في لجته ، ليلقي على المشهد كله حميمية قريبة من عاطفة القارئ وقناعاته إن لم تكن هي هي.. هذا فضلاً عن استعمال الألفاظ بمعانيها المستهدفة وتوظيفاتها في اللحظة والمكان المناسبين، مما يزيد من ارتقاء التصوير باتجاه التأثير الكامل: (نظرات الغيظ، الاشمئزاز يهشم).. وأكاد أقول: إن هذا الإتقان حدث مع الكاتبة في كثير من مناحي السرد ليمتد إلى جميع القصص تقريباً .

_ ولا تنفك الكاتبة عن إهدائنا المؤثرات الفاعلة ، وتوظيفها في السرد لإغناء الحدث، وبيان تفاعلاته، وذلك من أجل زيادة تفاعلنا _ نحن المتلقين _ معه، مما يؤثر على قناعاتنا وسلوكنا. فهي في قصة (بعمر الزيتون) تهدينا باقة من التحليل النفسي، واصفة حالة والد الطفلة الفلسطينية سوسن، المصابة برأسها بإصابة مباشرة من العدو، أثرت على جهازها الحركي، إذ تقول: (نقلت سوسن نظرها المشدوه إلى وجه والدها، وقد اختنقت في وجهه الحمرة، يجاهد ليحشر نفسه في جلباب المهابة، فإذا عيناه تغرورقان بالدموع الحارة، فتتراءى من خلفهما نظرات

مجروحة مكبلة بالانكسار، إنكسار مَن أُلبس ثوبَ الخضوع عنوة، وجثا على صدره القلق والغضب، حتى كاد أن يكتم أنفاسه، فراح صدره يجاهد هذا الثقل كمن أحاطه سياج القهر والاستبداد من كل جانب).

ولا تظنن أيها لقارئ أن الكاتبة جاءت بهذا التحليل لما يدور في نفسية الأب لمجرد الإمتاع والتسلية، أو لاستعراض قدرتها في استخدام اللغة، لا.. إن السياق الذي أوردتُه من النص، هَدَفَ إلى وضعنا في صورة التشكيل العام للموقف العاطفي والسياسي والاجتماعي لشريحة كبيرة من سكان فلسطين المحتلة، الذين يرزحون تحت ثقل القهر والاحتلال الجاثم على الصدور. وهو ما أرادت أن تبديه هذه القصة لنا، وإذن فهو استخدام مؤثر، وتشكيل يرينا مدى ما تختزنه الصدور في فلسطين من قهر وإرادة للانتقام للكرامة، حيث تأتي نهاية القصة مناسبة لهذا السياق؛ إذ تخرج سوسن من المستشفى لتعود إلى المدرسة، وأول ما تفكر به الانتقام والانضمام إلى النضال، فتستهل مسيرتها بطعن الجندي الذي أصابها.. ثم ها هي تختتم سيرتها بقولها: (ومن خلف القضبان تصرخ سوسن: سأخرج إلى حضن النضال، فقد نذرت نفسي لتحرير الوطن، ولن يثنيني شيء حتى أنال أحد الشرفين: النصر أو الشهادة) .

ألا تلاحظون استخدام تجسيد المكان (المستشفى، السجن)؟ ثم الا ترون أن الكاتبة استخدمت قبل لحظة التنوير الأخيرة التي أوردناها، وبعد التحليل النفسي الذي سقنا نصه، الكثير من المؤثرات، من مثل الإشارة إلى صمت العالم ومؤسساته الدولية عن برامج القتل والإهانة والقهر اليومي لأهل فلسطين، كما أنها استعملت أشياء المكان لتضفي على السياق ارتباطاً بالتاريخ وامتداداً مع الحياة ، ولتتفاعل كل هذه المؤثرات في السرد والنص، اقتراباً من قناعات المتلقي.. فاسمعها تقول: (ومع كل طعنة تطعنه فيها كان ينمو في داخلها العقل المنتفض بالحياة، حتى غدت الطفلة بعمر شجر الزيتون الفلسطيني، الذي ظل شموخه سامقاً فوق هذا الثرى آلاف السنين) .

وإذن فهو القهر الذي يسكن ساحات الرجل والمرأة في بلادنا، وليست هي معركة بين الرجل والمرأة، حتى إذا تحرر الجميع من القهر، وعاود الجميع (الرجل والمرأة) النظر إلى بعضهما من خلال الإسلام والإيمان استوت العلاقة على أساسات التكامل والتفاهم، وليس على الفصام والنكد، وهذا هو ما أرادت الأستاذة هيام ضمرة أن توصله للقارئ، على مدى صفحات هذه الباقة الطيبة من قصص(إنهن النساء)، ونعم الرسالة، ونعمت الأهداف المهتدية.

رابعاً :

وأخيراً.. أريد أن أقول لكم شيئاً: هل يحق لي في النهاية أن أهمس في آذانكم أن هلموا إلى (إنهن النساء)؛ قراءة واستمتاعاً وتدبراً.. فكلماتي الآنفة لم توفِ النص حقه، ولم تضعكم في الصورة كاملة.. وأكاد أجزم بأن هذه النصوص لو تخلصت من بعض الألفاظ، أو بعض الصياغات الجملية المُبالغ فيها، لكانت كاملة الأوصاف والله أعلم .

-٦-

وانتشت آخر الكلمات بأمل قد انتصر

هوامش موجزة على رواية (الزمن المفقود)، للأستاذة نعماء المجذوب

قال تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ ﴾ يوسف

إنَّ من يغرس بذوره في الذرى تموت بذوره في حالة التجمد، وهو كمن يغرس بذوره في القيعان الأجادب القاحلة، بحيث لا يحصد سوى رجع الصدى، وغزو الريح العاتية. لذلك فإن السيدة الكاتبة الأديبة نعماء محمد المجذوب استثمرت بذورها اللغوية والأسلوبية في السفوح الدافئة المعطاء، فأثمرت سردية نامقة مغدقة بالعطاء والأحاسيس والمشاعر الإنسانية الفذة، وذلك عبر منهج الاجتماعية والتاريخية، الذي تناولت به الكاتبة روايتها الثانية (الزمن المفقود) بعد روايتها الأولى: (مارد في صدري).

في رأيي المتواضع: إن مهمة الرواية الإسلامية تتمثل في سبر غور النفس الإنسانية. واكتشاف هواجسها، ووصف تعرجات خطوطها عبر المسيرة الزمنية، ومن ثم العروج إلى تلمس المخارج لفك الأزمات التي تنتاب حياة الآدمي، خلال مروره في مفازة الحياة العسيرة، نتيجة الحيرة والإرباك اللذين أمسكا بتلابيب الناس في هذا العصر، بعد اختراق الأفكار والسلوكيات المعاصرة لفطرته بحداثية منبتة عن الأخلاق، ذلك أن تلك الأفكار والسلوكيات في الحقيقة تتسم بأنها تنتمي إلى بدائية الإنسان، في لحظاته البعيدة عن الهدى الصادر عن الأصل الأصيل الموجد لهذا الكون، وهو الخالق البارئ المصور المربي لهذا الإنسان، العالِم بما ينفعه وما يضره، وقد رسم له طريق السلامة والوصول إلى شاطئ الأمان في مستقره النهائي الأبدي

الذي هو الحياة الحقة المستمرة بلا انقطاع..

وإنَّ هذا السبر وذلك الاكتشاف والوصف والعروج هي التي تعطي الرواية الإسلامية ميزتها التي تميزها عن روايات الواقعية الكلاسيكية أو روايات الواقعية الاشتراكية؛ لأن هذه الروايات تتسم بالتطرق إلى الواقع المريض المرير الذي يملأ الصدور قيحاً ودماً وفكراً مريضاً، لا يخرج بإجابات سديدة عن أسئلة الإنسان، ولا يعالج هواجسه، ولا يقوّم تعرجات خطوط نفسه وحياته، لأن فاقد الشيء لا يعطيه؛ إذ إن خطوط الرواية الواقعية الكلاسيكية. تكتفي بالوصف، وتصنع من المرض بطولة، بل وتجعل منه أنموذجاً، مبجلة ذلك المرض الذي سكن قلوب المثقفين والمفكرين في الغرب، عندما وضعوا في مواجهة الحداثة الصناعية والاقتصادية، تلك الحداثة التي جعلت من الإنسان سلعة أو مسنناً في الآلة، ولم يكن لدى المثقف الغربي من الإجابات عن مسيرته ومسيرة الناس ما ينقذ إنسانيته، التي راحت تتآكل تحت وطأة وحشية دوران مسننات الآلة والرأسمال الظالم، لذلك فهو في عجزه هذا استلهم المرض الذي استعمر الصدور، وراح يسخر الفن القصصي منه والروائي والشعر بقدرات فنية كبيرة لتثبيت بطولة المرض، وتدبيج المديح له وذلك في صورة انهزامية، أغلقت كل السبل أمام الحلم الإنساني المهتدي، الذي من الممكن أن ينقذ الإنسان من هجوم الليل وموجات الأحزان.

وأضيف إنَّه ليس عليّ في قراءتي العجلى لرواية السيدة نعماء (الزمن المفقود) أن أتبع أنماط قراءات النقاد المعاصرين، الذين كان نقدهم _في الغالب الأعم_ترجماتٍ رديئةً لفكر الغير.. بل إني أنطلق في ذلك من قلقي على مجتمعاتنا وحرصي على نضج المواقف قبل الفوت، لأستشف منها ما أرادت أن تقوله الكاتبة الأديبة منذ جملة الاستهلال وحتى النقطة الأخيرة الخاتمة.

فلقد وقّعت السيدة الأديبة في ذيل روايتها (الزمن المفقود) الممتدة على مساحة أكثر من مائتين وخمسين صفحة من القطع المتوسط بحروف أنثوية إسلامية،

سبرت غور تلك الأنثوية، محاولة اكتشاف معارجها بصحبة الزمن والمكان وتحولاتهما، مرتادة بذلك أعماق تلك المرأة "أميمة"، لتخرج من ذلك الارتياد، بذلك الحزن المقيم الذي صاحب تلك الأنثى من أول المواسم وحتى الحصاد الأخير. ولكنه رغم وطأته. ورغم أنه ولّد في نفسها عنفوان الرفض، إلا أنه لم يستطع أن يمرض صدرها، لتنفث تلك الريح الصفراء، التي نفثها كتاب غربيون كبار، عندما وقفوا عاجزين أمام الآلة والمال، فبدلاً من أن ينيروا الطريق أمام السارين في الظلام الصناعي الرأسمالي، انقشعت غيومهم عن مطر أصفر برائحة نتنة أغرقت السبل بسيول رائعة فنياً.. إلا أنها رغم روعتها عمّقت المتاهات أمام الإنسان.

ورغم الحزن الضافي الذي غطى معظم الرواية، فقد كمن أفق مضيء بالهدي الرباني يسكن قلب وعقل البطلة (أميمة)، وينير وحدتها،ويخفف وقع القرار المتخذ في العائلة اليمنية المهاجرة إلى اللاذقية في سورية الذي قضى بأن تكون الفتاة الجميلة الرائعة حبيسة بيت أبيها وعائلتها، ولتكون الأم الحقيقية للجميع، وبناء عليه فهي محظور عليها أن تحقق طموحها في بناء بيتٍ زوجيٍّ خاصٍّ بها، رغم كثرة الخطّاب، ورغم الجمال الأخاذ الذي وهبها إياه خالقها والعقل المتّقد والإيمان المتجدّد في فؤادها.. إنها العادات والتقاليد تسدّ الأفق أمام طموحات الأنثى في أن تحقق الأمومة في حياتها، تلك الخصلة التي جعلت من المرأة إنساناً ذا ميزة إنسانية فذة، وضعها الله في تلك النفس الأنثوية، لتقوم بواجب لا يدانيه أي واجب في هذه الحياة، إلا أن البعض يحاول توظيفه في المعركة المريبة حول حقوق المرأة لإخراجها إلى الشارع فتكون في العراء صيداً سهلاً لذوي النيات المريضة من الرجال والنساء.

كانت أميمة في صبرها تردّد مع الشاعر: "وصبرني أفق مشرق"، فقد تغذى صبرها من قيم السماء، لذا كان حراكها مستقيماً وإجاباتها سديدة، من خلال حوار أدارته الكاتبة باقتدار استطاعت من خلاله أن تخرج من قِدر القلب الأنثوي المؤمن توجيهات سامية نافذة منقذة، تمني الحادين بأيام سعد لمن ألقى السمع وهو

شهيد.. وكل ذلك بعيداً عن صيغ الوعظ المباشر، وبلغة راقية ورفرفات أسلوبية وبلاغية تجعل من التشويق مصباحاً للقارئ حتى النهاية.. رغم أن التنويعات في الرواية قليلة.

اسمعها وهي تشير إلى المستورد من الأفكار تذمّها وتومئ إليها بصورةٍ فنية مقتدرة: (كانت قطرات الندىٰ تبلل أقدامنا، ويعلق منها على ذيول ملابسنا، والأزهار تهمس بالترحاب، وقلوبنا تخفق في وداعة، لفت أنظارنا البطيخ"١" المرّ، تملّكتني الدهشة، كيف لجأ إلينا من الصحراء، هل حملت الريح بذوره وألقته هنا.. لم نتوقع مشاهدته في أرضنا... شققنا واحدة ذقنا طعمها، لسعتنا مرارتها، فنسينا جمالها المتألق ثم عدنا والسكون في الفضاء يلطمنا..) إنها تومئ هنا بإشارات لطيفة إلى مستورداتنا من الفكر المرّ، وكثيرة هي الإشارات والإيماءات الرائعة في هذه الرواية، وكثير هو الحوار المقتدر الذي ينبع عن مكنونات الأنثىٰ المهتدية بهدي ربها، وكثيرة هي المنولوجات غير الحشوية التي توسع أفق الرواية.

وكما قلت إني معجب بإمكانية احتفاظ الكاتبة بالتشويق حتى النهاية ، مع أن الرواية تبدو في جسمها الأعظم سيرة ذاتية للفتاة أميمة، ترويها صديقتها الكاتبة، خالية من التنويع في المحيط ووصف الأحوال السياسية والاجتماعية، إذ كان البناء الروائي كله متعلقاً بحراك أميمة المحدود.. إنَّ قدرة الكاتبة على الاحتفاظ بالحياة والحيوية لروايتها حتى النهاية مع ما ذكرت من فقر التنويع، تسجل لها بجدارة في سوق السرد والقص وإدارة الحوار المشوق.

استمع إلى الكاتبة وهي تدير حواراً يعطيك صورة جلية عن مدى التطور في شخصية البطلة.

كان ثمة أسئلة تستثير أميمة

- أيهما أعمّ وأشمل ظرف الزمان أم ظرف المكان

ضحكت من نفسها وهي تقول:

قد لا يعنيني أن أجيب عن هذا السؤال

ولكن بقي السؤال يلح عليها... قرأت أن مفهوم ظرف الزمان يستقل عن مفهوم ظرف المكان، وأنّ الزمان أعمّ وأشمل من المسافة لعلاقته بالعالم الداخلي.. الزمان عالم بلا حدود وأفق بلا نهاية.

والكاتبة لم تبتدع هذا التطور الثقافي الفلسفي الذي حدث للشخصية الرئيسية في الرواية وهي التي لم تتجاوز في تعليمها حدود الثانوية العامة.. لكنها "أميمة" راحت تنمي قدراتها وثقافتها بشكل كبير، من خلال التزام الكتاب والاطلاع على أحوال النساء في محيطها القريب، ومن خلال خلوات التأمل وإضفاء الصبر على محنتها وانسداد الأفق أمامها في تحقيق مطامح الأنثى المهتدية في بيتٍ زوجيٍّ سعيد. لذا فهي قد بلغت هذا الشأو الكبير من الفكر والمحاورة والتطور بشكلٍ طبيعي منطقي داخل سطور الرواية، وهذه قدرة أخرى من القدرات الفنية للكاتبة.

إنها الرواية: (الزمن المفقود).. ألا ترون أنَّ الفن يبحر في سطورها وسردها وحوارها، وتستيقظ في أرجائها صيغ الهداية الربانية لتسمها بالإسلامية الهادفة، بحيث تميز نفسها عن تلك الروايات التي تجعل من البطل نذلاً ينزل إلى الحضيض الأخلاقي عند أول صدمة من صدمات الحياة.. لقد كان الإيمان والصبر والأمل المشرق وقيم الإسلام دروعاً حافظة لمسيرة أميمة في مفازتها، وكانت أهم وسيلة لديها: أنها لم تكن تخشى أفكارها، ولم تكن تجبن عن استعراض أوضاعها، بل كانت تجربتها والانسدادات التي تواجهها تفتح أمامها إشراقات الأمل والرضا، يحدوها في ذلك إيمان صامد، لم تحاول الكاتبة أن تبثّه بصورة مباشرة، بل من خلال منولوجات وحوارات رشيقة تخلو من الوحشي والحشو، وتحلق في صبابات الفكر النير الغالي.

فهي منذ الاستهلال تضعك في صورة رحلة في العالم الداخلي للأنثى المسلمة المؤمنة، وذلك حين تقول في أول جملة لها: (توقفت عن الاسترسال في الذكريات وأنا في رحلة شاقة إلى عالمي الداخلي.. أواجه بها نفسي لأكتب عما أظنه وقع خطواتي..).

بهذه الصورة الجميلة تلخص الأديبة الكاتبة روايتها، على أنها الكلمات التي تستبطن بها دواخلها، وما تحوكه المواقف ولحظات الضعف ولحظات القوة في شخصية المرأة تجاه ما يدور حولها، وما ينسج لها من قماش لتلبس. وهي تختتم الرواية بنفسية مؤمنة، تتواصل فيها الحياة المهتدية . ولا يتطرق اليأس إلى داخل النفس الأنثوية المؤمنة، فهي تظل مع الطهر والنظافة مهما ادلهمت في ساحتها الخطوب، ومهما فاجأتها الأحداث والمواقف واسمعها في الختام تقول عن ابنها "خزيمة":

خزيمة أحييت ذكراه في طفلي.. لا يتخلى الإنسان عن نفسه ، إخوتي هم نفسي.

لقد كان خزيمة أخاها المريض، الذي توفاه الله فحزنت عليه حزناً شديداً فهي التي كانت ترعاه بكل ما تملك من جهد ومن حنان، وها هي ترفض النهاية المؤلِمة فتجعل من ابنها استمراراً لمسيرة الحياة.. لقد كرّست الكاتبة في شخصية أميمة الرضا والتمرد المتزن؛ الذي لا يبتعد كثيراً عن المبادئ والقيم، بل هو الذي يقود الخطىٰ بتؤدة وحرص لتصل إلى المراد في لحظة فوزٍ لا تقلّ في دلالتها عن الصمت ذي الضجيج داخل أفئدة الناس المظلومين، فأميمة البطلة في الرواية، رغم هالة الحزن التي أحاطت أيامها، وانسداد الأفق في حياتها، والنداءات الداخلية التي كانت تعبق بها طموحاتها ، ليوقفها في منتصف الطريق ركض أمها من حولها بالحنان الندي والكلمات التي تلتئم منها الجروح.. كانت أميمة رغم ذلك كله الحمامة البيضاء النقية، التي تحلق في سماء العائلة راضية كل الرضى عن دورها أماً صغيرة للعائلة كلها.

وكانت في النهاية لحظات عذبة، تخطها يد ربيعٍ واعد، يدخل بعطره إلى حياة كانت شيمتها الصبر والطهر في حين كان شعارها الإنصات لأناشيد الروح، فأثمر انتظارها الصامت الهادر صحواً أنتج "خزيمة" الأمل.. وزفّ إلى الرواية بشرى زواج مؤسسة الجمعية الاجتماعية، التي انتمت إليها أميمة ، حيث تساءلت الراوية تزوجت وهي في الخمسين من عمرها..؟!

- أجل وهي في الخمسين.. ألم أقل لكِ: إن في المستقبل أملاً..

وهكذا انتشت آخر الكلمات بأمل قد انتصر... وانهزم اليأس والخور، وتردت الصدور المريضة من فوق جبل الأسماء اللامعة في السرد من أمثال "كافكا" وسوداويته الحاقدة، وكولن ولسون ونفثه المريض المتعجل غير المهتدي.. وانتقاءات نجيب محفوظ غير البريئة.. حيث يجعل من شواذ السلوك والتصرف بطولات يحتذى بها في مسيرة الحياة، فلماذا لا نجرب مطالعة الرواية؛ لنرى الإبداع في حلته الكاملة..؟

-٧-

قراءة في مرآة الضمير: قصة محمود مفلح

١- تمهيد

"إن المعركة الأدبية في ضخامة المعركة العسكرية، وحراس الإسلام الآن في معركة بقاء أو فناء؟ كلمات فذة أطلقها عالم فذّ، ذلك هو أستاذنا المجاهد "محمد الغزالي" هزتني وأثرت بي أيما تأثير. إنها تنم عن وعي عميق بطبيعة المعركة الإسلامية وطريقة إدارتها ومعرفة وسائلها المؤثرة.

ليتنا جميعاً نعي هذه الكلمات فتكون حافزاً لنا على الترقي في مجالين: مجال تذوق الأدب الإسلامي الصادق، ومن ثم نشره بحماسة وإخلاص نابعين من قناعات أكيدة راسخة بدوره المتميز في معركة الإسلام المصيرية المعاصرة. وفي مجال بناء وعي الإنسان المسلم الذي وهبه الله قدرة على الصياغة الأدبية الإبداعية بحيث يجعل من هذه الموهبة سلاحاً يقاتل في معترك الكلمة فيحرص على شحذه وتنميته والارتفاع بمستواه الفني إلى القمة السامقة التي تجعل منه مناهل خير، تسقي القلوب العطشى، وتروي النفوس اللاهثة خلف التيه، الذي يلف آفاق بلاد الإسلام بالغثّ الخبيث من الصياغات المنحدرة إلى وهاد الدمار والضياع.

إن ما يؤسف له أن حركة الصحوة الإسلامية لم تعط إلا اهتماماً ضئيلاً لسلاح الأدب خلال مسيرتها في مختلف المراحل بحيث اقتصر ذلك الاهتمام الضئيل على قضية الشعر بينما لم تلق الأنواع الأخرى كالقصة والرواية والمسرحية منها إلا اهتماماً ثانوياً.

وكان الأحرى بها أن توزع الاهتمام بين الكتابة الفكرية والسياسية ولغة الفقه المباشر وهي التي جذبت معظم الاهتمام لدى الصحوة ومفكريها وبين الإبداع الأدبي بحيث لا تغفل عن ظاهرة عصرية تمثلت فيما فعلته الصياغة الأدبية في

عصرنا الحديث من تهيئة وقبول لفكر الشيوعيين والاشتراكيين والوجوديين. كما كان الأحرى بها أن لا تغض النظر عن رؤية كتاب أدباء مثل غوركي وغوغول وسارتر، و.. و.. قاموا بنشر فكر الثورة والوجودية، فأغرقوا المجتمعات الغربية والشرقية بسيل من قصصهم ورواياتهم، التي أصبحت ملهمة التوجهات نحو مجتمعات اشتراكية أو مجتمعات وجودية منطلقة من كل القيم.

ولا يقلل من قيمة ما قلنا أن توجهت الصحوة في السنوات الأخيرة نحو سلاح الأدب بمختلف فروعه، فقد جاء ذلك التوجه متأخراً نوعاً ما، ونحن لا نقول ذلك من أجل التقليل من قيمة هذا التوجه، بل إننا نقوله تشجيعاً لهذا التوجه، الذي بدأ يحتل شيئاً فشيئاً فراغات الصمت التي تركتها الصحوة الإسلامية سنوات طويلة، فاتحة ثغرات واسعة في جدر دفاعاتنا الطرية. لقد آن الأوان للإسلاميين أن يدركوا حق الإدراك أن معركة الإسلام يجب أن تخاض في هذا العصر بأسحلته المتنوعة، وأن من أهم هذه الأسلحة سلاح الكلمة وأن رقعة الإبداع الفني في مجال الكلمة تحتل مكانة قد لا تصل إليها أية وسيلة أخرى إذا أحسن استخدامها.

ولنا في هذا المجال أن نردد مع الراحل يحيى حقي رحمه الله قوله في إحدى نصائحه: "على القارئ أن يتأمل لنفسه بنفسه كيف يدب الخداع والكذب في المؤلفات التي تسعى وراء استرضاء الجمهور"[(١)].

وذلك من أجل الترقي بذوق الجمهور، ومن ثم لنمضي بهذا الذوق لترسخ في شعوره القيم الإنسانية الأصيلة، التي فطر الله عليها هذا الإنسان، وجعله بها إنساناً متميزاً عن باقي المخلوقات.

ولا يفوتني أن أذكر في هذا المجال: أن الأدب والكلمة المبدعة التي تقع على خارطة التضاريس التي أشرت إليها، هو كل كلمة أريد بها إنقاذ هذا الإنسان مما ذهب يتقلب فيه من تيه ظلامي أفرغه مما حباه به الله من توق إلى إلف الإنسان

---

(١) مجلة الفيصل عدد ١٩٣ رجب ١٤١٣هـ كانون ثاني ١٩٩٣ صفحة (٥).

وإنصافه وحبه ومحاولة عونه ومساعدته، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الخلق عيال الله أحبهم إلى الله أكثرهم نفعاً لعياله.

وعلى هذا فإن كل كلمة تحاول أن تزيل بعض الران عن الفطرة الإنسانية التي راحت تنطمس تحت وطأة الضرورة والحاجة، والزحام اليومي، والضجيج الكالح للمدن العصرية والصخب الأصفر الناقع لأفكار النخاسة. ونقول: إن كل كلمة تحاول تلك المحاولة هي واحدة من تلك المحاولات المنتمية إلى دوحة الأدب، الذي ندعو إلى نشره وإعلاء شأنه وإيصال صوته إلى جهات الدنيا الأربع، كي نعذر إلى الله، ولا نكون مقصرين في استخدام وسيلة هي من أهم الوسائل في تواصل وتوصيل الفكر الإنساني الأصيل والاعتقاد به والعمل له.

ولا يفوتني هنا أن أُذكر بأن الاهتمام بالفكرة "المعنى" التي أردت تأكيدها، وأن الحرص على القيم، لا ينسيان الاهتمام بالنواحي الفنية في أية صياغة إبداعية شعراً؛ كانت أم قصة أم مسرحية أم رواية..

بل إنني أقول: إن الإجادة الفنية هي شرط أكيد لوصول المعنى المراد للناس؛ لأن التأثير المطلوب لن يتحقق بغير النص العالي، الذي يتضمن المعنى السامي، مع اللفظة المنتقاة، والصياغة الفنية الراقية، والتقنية الشكلية المتميزة. وعندئذ يستطيع هذا النص جذب المتلقين، خصوصاً إذا انطلق النص من نفس وذات أحبت هذا الإنسان، وأحبت الحياة معه في النور الفطري الذي حمله الأنبياء إلى هذا الإنسان؛ إذ عاشوا همومه، وتفهموا هواجسه، وعرفوا مآخذ توجهاتهم ومكامن الثقة التي ينقادون منها إلى حيث سعادتهم وحريتهم ونظافة نفوسهم وأيديهم وعقولهم وأمان يومهم وغدهم.

إن الأدب الذي نريد والكلمة المبدعة التي نبتغي هما كل ما يفضي إلى هذه النظافة والرقي، وهما في الوقت نفسه اللذان يعيشان مع هذا الإنسان على الأرض، لا في الرؤى والخيالات الرمزية (والرومانسية) بل في الواقع الحياتي

اليومي، بحيث نترقى به في معارج الكمال لتزال من طريقه كل العوائق الـتي تقـوده إلى سعادتين بدلاً من سعادة واحدة. يتوهم تحقيقها بتحصيل بعض من المتاع، همـا سعادة الدنيا وسعادة الآخرة.

٢- القصة القصيرة

إن القصة القصيرة اليوم – ونحن نخطو في ساحات القرن الحادي والعشـرين_ لم تتراجع مكانتها، ولم تخسر مكانها كما يظـن الـبعض، فهـي اليـوم مـلاذ القـارئ والسامع والرائي بعد أن أصبحت السرعة تلف كل نشاطات الإنسـان، وتضـعه في بؤرة الظمأ الثقافي المركز السريع الممتـع. ولا يسـعنا في هـذا المجـال إلا أن نستشـهد لرأينا هذا بقول الدكتور "بسام ساعي" في كتابه "الواقعية الإسلامية"[(١)] إذ يقول:

"أما القصة بجناحيها المكتوب والمذاع، نشـأتها في حياتنـا المعاصـرة أخطـر مـن الشعر، إذ وجدت لها منابر عديدة ومتنوعة، لا يحلـم الشـعر بالوصـول إليهـا. وإن كان الشعر في مطلع التاريخ منبر الإنسان الأهم للتعبير عن مشاعره المختلفة التي لا تستطيع اللغة العادية الإحاطة بها.

لقد أضحت القصة في القرون الأخيرة ولا سيما في هذا القرن الأداة التعبيرية الفنية الأولى لتوضيح هذه المشاعر الكثيرة المتضاربة عند بني البشر، حتـى في القـرن الماضي كان الناس بألسنة نقادهم يشعرون أن الرواية لم تعد بطولها الشديد ملائمـة لحياة الإنسان السريعة، ويعزو الناقد (بيلنيسكي) (١٨٢٠- ١٨٩٨) تراجع الروايـة وتقدم القصة إلى تغير الواقع: "...إننا نحرص على الوقت وليس لدينا من الوقت مـا يكفي لقراءة الكتب المطولة وبكلمة موجزة: إننا بحاجة إلى قصة... إنها قصة قصيرة وسريعة وخفيفة وعميقة تنتقل في نفس الوقت من موضوع إلى آخر وتجـزئ الحيـاة إلى دقائق.."

وإسهاماً مني في تجلية تطبيقيه مـن هـذا الفـن الأدبـي، فـإني أتنـاول في هـذه

(١) الصفحة ٣٠، بتصرف بسيط.

العجالة نصاً سردياً لأديب إسلامي كريم، أخ صديق، هو الأستاذ محمود مفلح، وهو مع كونه شاعراً أصيلاً فقد تناول بقلمه القصة القصيرة، وذلك لما بين هذين الفنين من تجاور وقربى.

وسوف يكون منهجي في تناول النص، غير معتمد على مصطلحات الغرب النقدية، التي غزت نقادنا، وصبغت كتاباتهم بالألغاز واللغة غير المفهومة. فكأنه قد راق لهم أن تكون لغتهم كلغة الكهان في الديانات الوثنية والشركية (خاصة وملغزة وغامضة) حتى لا يفهمها إلا أهل ذلك الفن، وأحلاس ذلك الكهنوت، وليقال إن فلاناً فاهم ومثقف ومتفلسف!.

بل إنني سوف أتناول النص بمنهج مبسط، ينظر إلى القصة على أنها كيان أدبي ذو هدف سامٍ، تتخلله صياغات بيانية، وخيال هادف، وأدوات مفهومة، تخرجه من الكلام العادي إلى معنى الفن. دون التقيد بالشروط والقيود التي أملتها على القصة خيالات غربية، كثير منها غير مناسب ولا مفيد فيما نبتغي لقصتنا الإسلامية أن ترمي إليه، هذا مع علمنا أن أوائل من كتبوا القصة الحديثة في الغرب مثل (رتشاردسن) و (غوغول) لم يكتبوها على مثال سابق يحتذى أو شروط وقياسات موضوعة، ومع ذلك فقد نبغ فيها هؤلاء، خصوصاً غوغول الذي أصبحت كتابته مدرسة في هذا الفن فيما بعد.

٣- القصة موضوع الدراسة هي: مرآة الضمير

الكاتب: الأستاذ محمود مفلح

انتقيتها من مجموعته القصصية تحت عنوان (المرفأ) التي نشرتها دار المعرفة منذ سنوات طويلة. وتضم هذه المجموعة عشر قصص في ٩٢ صفحة من القطع الصغير.

تنتمي القصة إلى الأدب الواقعي الإسلامي الذي ينتقي صورة من هذا الواقع الذي نعيشه، ويضفي عليه من بيانه ما يرفعه إلى مصاف التأثير في القارئ وتفاعله

مع الحدث، بحيث يصل معه في النهاية إلى قناعة: أن الواقع الـذي رآه وتفاعـل مـع أحداثه المركزة الكثيفة الدقيقة لا يلائم الذوق الإنساني الرفيع المتناغم مـع الفطـرة الخلقية الأصلية، ولهذا فإن اللقطة الواقعية هذه تحتـاج إلى عـلاج ودواء، وأن هـذا الدواء يقع في دائرة الملاءمة بين الحياة كواقع ميداني وبين ما تمليـه الفطـرة الإيمانيـة السليمة من تعديل، وذلك ليقوم بناء الحياة كياناً سوياً ووسطاً صـافياً، يسـلسُ فيـه قياد الحياة الدنيا ويستوي على صلاح، وذلك ليس ضمن روتين مرسـوم لا شـائبة فيه، فيقع في مطب المثاليـة المطلقـة، الـتي لا يمكـن أن تنـدرج في مسـارب التجربـة البشرية، أو يغوص داخل أطر المادة والحسّ فلا ترتفع فيه العين إلى السماء، بحيـث تحجبها عنها ستائر الرؤى المريضة العاجزة عن التحليق، لمعرفة ما وراء هذه الكتلـة المادية المحضة من عوالم فسيحة، يجب أن لا يحبسها عنها الركون إلى الأرض.

استهلَّ الكاتب قصته بالمنظر الأخير من الحدث، وعرضه مع صورة الانفعال التي انتابته، حين رأى بأمِّ عينيه ذلك المشهد الراعب، إلا أنه أيضـاً لم يعـط للقـارئ كل شيء يريد معرفته منذ الوهلة الأولى، بل أنشأ في نفسه مباشرة لهفة حميمـة تـؤزه لمعرفة القصة من أولها "لا أدري كيف انتفض جسدي كله، وسرت فيـه موجـة مـن الغضب المحموم، حينما أطلَّ بجسده الممتلئ المترهل ونظارته الخضراء ذات الـدوائر الكثيرة وقال بكلمات جافة ممطوطة:

– إلى الوطني.. إلى الوطني.. خذوه إلى الوطني.. ثم أدار كتفيه صافقاً من خلفه الباب" جمل سريعة، مكثفة، غاضبة، غامضة، شدَّت القارئ ووضعته في حالة نفسـية شديدة الترقب متلهفة لمعرفة ما جرى؟.. ولماذا جـرى؟.. وكيـف؟ بـل إنهـا هيأتـه للتلقي. بعد هذه الحركة السريعة المدهشة.

استهلال موفق.. والاستهلال الموفق كما يقولون هو الذي يشد القصـة كلـها بخيوط متينة من النجاح حتى النهاية.

وهذا ما كان من أديبنا الإسلامي في قصته تلك. حيث وظف الجملة القصـيرة

مع الحالة النفسية للقارئ، مدعومة بالألفاظ المناسبة، "انتفض، الغضب، جافة المحموم.." في حومة واحدة جذبت القارئ وهيأته.

ليبدأ بعد ذلك فينور للقارئ الصورة بأنوار خافتة، متدرجة في الإضاءة المتأنية، التي تُعرج على أجزاء الصورة واحدة بعد الأخرى، دون أن تجعله يلقي بالقصة وهو في صفحتها الأولى.

في البداية وبعد الاستهلال عرف على نفسه والقصد من حضوره إلى ذلك المكان وشعوره نحو ما جرى. وهنا جرى التيار مع الكاتب بهدوء وروية، فبعد شلال الجمل القصيرة المتدافعة، هدأ السيل فطالت الجمل، وتطامنت الألفاظ.. "صحيح أنني لم كن في تلك اللحظة طرفاً في الموضوع، ربما لأنه كان في جيبي حينئذٍ عشرون الليرة السورية.. رغم هذا فقد شعرت أن ثمة رصاصات شيطانية تثقب جسدي.. جسدي أنا بالذات، وتستقر في كل خلية من خلاياه." وهذا ما يقتضيه الحال هنا وترضى عنه الهيأة المطلوبة.

ثم دخل من ذلك الباب إلى التعريف بالمكان، وأنه في المدينة، حيث قدم وصفاً لها، لم يتركه شارداً بلا رابط مع الحدث الذي هو موضع الأثر ومكمن الهدف، إذ يعيش الفقراء فيها، لاهثين خلف لقمة العيش بينما يقوم الميسورون بالهروب من حرّها وضوضائها إلى الجبال والمصائف. واقرأ إذا شئت مع الكاتب هذا الوصف:

"هذه هي المرة الثالثة التي أتردد فيها على المدينة، كانت الأولى فيما أذكر قبل خمسة شهور، والصيف في أوج غليانه، عندها كانت المدينة تحزم أمتعتها لتتسلق سفوح الجبال..

وإذن فهذا هو مكان الحدث: المدينة ذات الضوضاء والحر اللاهب في الصيف، إذ يهرب منه أهل اليسار من أمثال طبيبنا، بينما يبقى أهل اللقمة والكفاف "يدمنون زفير المدينة ولهاثها المتصل، فلم يروا ثمة ضرورة للصعود!!" طبعاً

إلى المصائف والجبال. والسبب معروف، وعلى هذا فإن للمدينة علاقة وثيقة بأسباب الحدث الإنساني الذي وقع في عيادة طبيب العيون، ذلك الذي خاطب المريض المصاب الطارئ، غير القادر على دفع أجرة المعالجة، "الكشفية" كما يسمونها.

ومن أجل أن يلتصق المكان في ذهن القارئ بشخصية ذلك الطبيب، لم يترك الكاتب العيادة بلا تنوير: "وفي الحقيقة إن الداخل إلى عيادة الدكتور (رئيف شاهين) لا يمكن أن يقنع نفسه بأن وراء هذه العيادة شهرةً طائرةً وثراءً واسعاً، خصوصاً وهو يرى موجوداتها التي لا تتجاوز ثمانية كراس من الخشب العادي، فقد أكثرها الطلاء، وثلاثة أخرى من القش الرخيص..".

فالطبيب منذ اللحظة الأولى بخل على زائريه بجلسة انتظار مريحة مع ثرائه وشهرته. ومن هنا فإن هذه الإضاءة تلقي بإيحاءاتها الهادفة التي تضيء المشهد الأخير الذي ابتدأ النص به.

ثم إن الكاتب ببراعة غير عادية، يلقي بالقارئ في خضم التخمين حول نفسية ذلك الطبيب، التي رسخت في ذهنه صورته عندما سمع وصفاً له منذ البداية، حيث يجعل عيادته هنا موضعاً للسخرية، فلا تُعرف بأنها عيادة إلا بالنظر إلى اللوحات المعروضة على جدران حجرة الاستقبال. "ومع كل هذا فالناظر إلى جدران حجرة الاستقبال يدرك على الفور أنها عيادة طبيب للعيون". وبهذا يكتمل المنظر: الطبيب والعيادة (الإنسان والمكان) إنها صورة رائعة، توحي للقارئ بأنه لولا تلك اللوحات على الجدران لما عرف أي من الداخلين أنها عيادة طبيب عيون، ومن هنا يقع القارئ في فخ التخمينات والأسئلة، التي يجوب بها الآفاق، ليعرف ما هي التركيبة الإنسانية لذلك الطبيب، فتراه يركض خلف سطور الكاتب لعله يجد فيها جواباً شافياً. وتمضي به السطور لتصف له لوحة كتب عليها تسعيرة المعاينة:

- في العيادة عشرون ليرة سورية.

- في المنزل خمسون ليرة سورية.

وتأتي كلمات أحد الزائرين لتضيء التصور الشعبي عن تلك الأسعار: "أف" خمسون ليرة! الله يعين الفقير! ومن يمرض غير الفقير؟!" وبهذا تكتمل الصورة الزائفة للطبيب، وحتى اللحظة كان الكاتب مشغولاً بتحضير الأذهان وشد الأنفاس لسماع الحدث الرئيسي في القصة، وليحكم بعدها على هذا الطبيب وأمثاله، وليكون ذلك الحكم دافعاً إلى محاولة التغيير سواء كان ذلك التغيير من الطبيب نفسه أو من الناس كلهم.

إن الصورة (الكاريكاتورية) لذلك الطبيب منذ الاستهلال تضع كل القارئين لهذه القصة في حومة السخرية من تلك الشخصية، ومن ثم مقتها ورفض سلوكها إن الأرضية التي أجلس الكاتب قارئه عليها بداية أرضية ذكية حاذقة، جعلته مشدوداً إلى معرفة المزيد عن صاحبنا. وفعلاً فإن الكاتب لم يتوان عن ذلك ففي لحظة خاطفة بارعة انتقل بأعين وجوارح زائري الطبيب إلى الباب الخارجي، حيث كانت حالة طارئة لرجل "عتال" يضع كفيه على عينه اليسرى وهي تنزف دماً ويلخص الموقف بكلمات سريعة.

"أخ يا عيني.. الله يجازي أولاد الحرام.. دخيلك يا دكتور.. دخيل عرضك.. أخ أنجدني.."

ثم يذهب الكاتب ممعناً في تلوين المنظر، ليلقي عليه كثيراً من الحياة، ويطلع القارئ على كثير من المفارقات التي احتوتها عيادة هذا الطبيب؛ فالممرضة التي تدير العيادة بالغت في أناقة صدارها الأبيض، ونثرت فوق كتفيها شعراً فاحماً "أدركت فيما بعد أنه مستعار".

وقبل أن تعرف حال المريض من الجدةِ أو الفقر كانت لهجتها رقيقة معه عندما طلبت منه الإسراع بالدخول "تكرم تكرم لحظة واحدة.. تفضل اجلس"

لكنها عندما علمت أن الرجل "عتال" ولا يستطيع دفع المعلوم تغيرت لهجتها..

"لا يملك!؟ وكيف تريد من الطبيب أن يستقبله؟!"

"يا سيد أنا معي تعليمات من الطبيب بالذات حول هذا الموضوع.. أرجوك لا تضيع الوقت"

"يا سيد اتسخ البلاط بدم صاحبك إما أن تدفع الكشفية أو.. دبر راسك"

وكانت المفارقة الكبيرة في منظر هذه الممرضة المتصابية التي صبغت الوجه واستخدمت كل ما عند "ماكس فاكتور" للعينين والشفتين والحاجبين رغم أنها قد تجاوزت الخمسين من العمر. إنه التزوير لكل شيء إنساني في المدينة..!

وأخيراً تأتي الخاتمة الكبرى على يد الطبيب، بعد جدلٍ عنيد بين هذه الممرضة وصاحب العين المقلوعة النازفة بشدة.

"قلت لكِ أَعلمي الدكتور وكفى.. قولي له عتال قلعت عينه،.. قولي له إنسان يموت.. أخ يا عيني.."

"وقبل أن تتراجع الآنسة خطوات إلى الوراء بفعل الكلمات الشظايا، كان الطبيب يطل من باب غرفته بقامته الممتلئة المترهلة ونظارته الخضراء كثيرة الدوائر.. قال بكلمات جافة ممطوطة، ذات نبرة مترفعة، وسبابته تشير إلى العجوز المصاب، كأنها تشير إلى جرذ يموت.

- إلى الوطني.. إلى المشفى الوطني خذوه إلى الوطني وأدار كتفيه صافقاً من خلفه الباب.."

وسقطت السماعات على الأرض، وارتطمت القيم بكل ذلك الحائط من الصدّ المنتمي إلى عالم الرمز الذي استعمله الكاتب ببراعة، في أثناء وصف حال الطبيب: القامة الممتلئة التي رمزت إلى كل ممتلئ على حساب قوت الناس وآلامهم، والجسم المترهل، مشيراً إلى ذلك الترهل الذي أصاب مجتمعاتنا، بسبب ضياع القيم السامية في متاهات النظارات الخضراء، التي تقلب لون الحياة، لتنداح في الدوائر

المتوالية، للزجاجات النفسية الملتوية التي يعيشها هذا الطبيب وكثير من أشباهه، ولا يجدون من يضع حداً لهذا الانزلاق الهائل، المؤدي إلى مزيد من الضياع.

إنها قصة جديرة بأن تقرأ بكاملها هي وزميلاتها المرصوفة معها في مجموعة: (المرفأ)، لعلنا نؤوب يوماً مع أمتنا إلى مرفئنا الآمن، في ظل قيم وعدالة السماء الخالدة، التي خاطبنا بها رب العباد على لسان رسولنا الكريم ﷺ.

فنسعد ونُسعد من حولنا وننقذ الإنسان المسرع في انزلاق داخل حمأة المادة الآسنة، ذات النظرة الأحادية العين والزاوية! إنها قصة جيدة حتى بالمتعارف الغربي من النقد، لا أقول إنها خلت بناءً عليه من أي وهن، لا بل إن ما فيها منه نادر وقليل جداً يضيع في زخم العبرة والتوظيف الجيد للفظة والجملة، والسبك الجميل، والشدَّ الشائق، والتواصل القيمي، والبعد عن الخطاب المباشر.

الفهرس

مقدمة: الأمةالأمية ٥

الباب الأول وفيه أبحاث في التنظير ٩

أ- المبحث الأول: مكانة الكتابة والكتاب ١١

ب- المبحث الثاني: الموهبة ١٥

ج- المبحث الثالث: تنمية الموهبة وفيه فصول:

١- العقيدة والسلوك والأخلاق ٢١

٢- الاطلاع الواسع على فروع المعرفة ٢٧

٣- الاطلاع المستمر ٣٣

د- المبحث الرابع: المران والتجريب ٣٩

هـ- المبحث الخامس: السير قدماً، التأكيد الملح على العقيدة والسلوك ٤٣

و- المبحث السادس: خطوط الارتقاء ٤٩

ز- المبحث السابع: حديث في الأسلوب ٥٧

ح- المبحث الثامن: النور الآن في قلمك وملك أناملك ٦٥

الباب الثاني: وفيه تطبيقات ٧٣

١- حرية الإبداع ٧٥

٢- الشعر وتيار الوعي ٨٤

٣- الحداثة والأدب ٩٢

٤- دراسة عن رواية (عينان مطفأتان وقلب بصير) للدكتور عبدالله الطنطاوي القاص والكاتب والناقد السوري ١٠٠

٥- قراءة في المجموعة القصصية (إنهن النساء) للأستاذة (هيام ضمرة) الأديبة الأردنية .. ١٠٧

٦- دراسة في رواية (الزمن المفقود) للأستاذة(نعماء المجذوب) الأديبة السورية ١١٧

٧- دراسة في المجموعة القصصية (مرآة الضمير) لمحمود مفلح، القاص والشاعر الفلسطيني .. ١٢٤

ملاحظة: أبحاث التنظير والتطبيقات كلها منشورة

في الصحف منذ زمن مثل/ المجتمع، النور، المشكاة/

